روايات الهلال

العجز

فؤاد قنديل

REWAYAT AL-HILAL
No. 417 — September 1983



روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٤١٧ ـ سبتمبر ١٩٨٣ ـ ذو الحجة ١٤٠٣
No. 417 — September 1983

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : موسى عيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ـ ١٢ عددا ـ في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي . وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية او ما يعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوي وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادي وعشرون دولارا بالبريد الجوي

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج٠م٠ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من روايات الهلال .

ثمن النسخة في البلاد العربية للاعداد العادية اعتبارا من شهر يولية عام ١٩٨٣ فئة ٣٠٠ مليم للقارىء في مصر .

سوريا ٦٠٠ ق٠س ، لبنان ٦٠٠ ق٠ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية ٦ ريال ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بني ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بني ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بني ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بني ، ايطاليا [illegible] ليرة ، سويسرا ٣٫٥ فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة ، فيينا ٢٥ شلن ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٢٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورين .

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

العجز

مجموعة
قصص

بقلم

فؤاد قنديل

دار الهلال

الغلاف والرسوم الداخلية بريشة
الفنانة سميحة حسنين

الأم



إهداء

إلى شريكة الحياة

ورفيقة العمر

نموذج الاخلاص والحب

فؤاد

الدم

عندما وضعت قدمى على أول درجة من درجات السلم الحجرى، استوقفنى للحظة منظر دم . نقط من الدم .. لكنى لم اهتم .

كل شيء ممكن حدوثه . والاهتمام يكون بقدر الانفعال ، والانفعال يكون بقدر الخصوصية .

لكنى مع درجة اخرى ، وجدت نقطا اخرى من دم . ثم درجة ثالثة ورابعة .. كلما صعدت وجدت الدم يسبقنى . توجست .

بدات الاسئلة تدق راسى . ما هذا الدم ؟

هل يا ترى دم دجاجة أم دم انسان ؟ .. أم دم قط أم دم .. أم مجرد لون .. سائل احمر .

واذا كان دما بشريا فهل يخصنا ؟

ثقل دق الأسئلة وطرق الأفكار على رأسى .. هل يخصنى ؟ ..

فى هذه الحالات يسرع العقل فى طريق التشاؤم ، حتى ليتخيل الانسان أن مخلوقا من السماء جاء خصيصا ليذبح ابنه ، وقد يتصور آخر ان رصاصة خاطئة اصابت زوجته .

زوجته هو بالذات من دون كل الزوجات .

شيء معقول وممكن .

لا شيء يستبعد فى هذا الزمان . فالمجانين يحيطون بنا ، بل ربما نكون ضمن هؤلاء المجانين .

لم تعد التصرفات الحمقاء والخرقاء فى هذا العصر ، مقصورة على الهمجى دون المتعلم ، أو الريفى دون الحضرى . لقد غدت الانهار بلا جسور واختلط الحابل — كما يقولون — بالنابل .

لم تعد هناك برامج محددة لخطوات الانسان ولا مناهج لسلوكه ولا خطة له فى الحياة . اصبحت المسائل ارتجالية وبنت لحظتها ومعظمها ردود افعال وليست افعال .

كالخائف حين يحسب القطة فى الليل روحا شريرة او عفريتا يتقمص جسد قطة الى غير ذلك .

انا بالذات دق قلبى بعنف ، حين وقعت عينى على الدم .. انا بالذات لم افكر فى المجانين ، ولم تشغلنى رصاصة طائشة ..

شغلتنى رصاصة حقيقية . رصاصة تتبعنى من زمن ، وتترقبنى طويلا لتنطلق الى صدرى ، فتصيب وتدمى ، وتنهى القضية .

فجأة تصورته امامى . ارتسم فى راسى وقلبى وجهه الشرس وشاربه الضخم ونظراته القاتلة . فجأة احاطنى من كل جانب . لفتنى نظراته كثعبان . قيدتنى . علقتنى وشنقتنى .

وقفت على السلم مجمدا . درت حول نفسى مذعورا ..

هل جاء ؟

هل عرف مكاننا .. وكيف ؟

لا .. لا تسأل كيف .. لا يصعب عليه شىء ، انه داهية .. ياتى من اسيوط الى رشيد بحثا عنا ، ليصب رصاصاته فينا ويرتاح .. يرفع راسه بعدها ويظهر وجهه كله المختفى خلف « التلافيح » و « الكوفيات » و .. و .. حتى لا يبقى له الا عينان كعينى بندقيته المشتاقة .

عيون لا يغمض لها جفن ليل نهار .. سنوات مضت .

لا تسأل كيف يجد طريقه الينا .

يستطيع ان يبلغنا ــ وله عيــون ــ حتى لو ابتلعتنا الارض او اختبأنا فى بطن الحوت ، يستطيع ان ينفذ من ثقب الابرة .. وغير العيون له انوف تشم آثارنا وتهتدى الى روائحنا انى ذهبنا آه .. آه مسح البلاد كلها من جنوبها الى الشمال .

ما هذا الدم ؟

هل يمكن أن يكون قد ؟ .. لا اظن .

فقط انا لا اظن ، من باب الامل فى الله والطمع فى رحمته .

يارب ليس الآن .. يارب اجل قضاءك .

هل هذا الدم .. دمهم ؟

دق قلبى بعنف .

قفزت اتابع الدم . الدم يقفز معى ، الى ان بلغ شقتى .

وانتهى هناك . نفذ تحت عقب الباب .. توقفت اقلب الامر .

مت لدقيقة . تيقنت ان كل شىء قد انتهى .

لم اطرق الباب . بلغنى صراخ ابنتى . فتحت بسرعة واندفعت تجاه الصوت . الفيت دينا الصغيرة غارقة فى دموعها .. اين الدم اختفى فجأة .

ــ اين ماما ؟

عدت اهزها فى اضطراب .

ــ اين ماما ؟

كفت عن البكاء ولم ترد . زادت حيرتى . اوشك عقلى ان يطير شظايا . عدت الى الدم . سرت فى اعقابه ، تصورته خطا دمويا الى الابد . نقط حمراء ممتدة الى نهاية العمر . لها اسنان تنهش .

انتهى طابور الدم عند المطبخ ، دون بحيرة ودون منطقة تجمع واسعة . انتهى فى صمت وبلا نتيجة محددة . كدت اجن .

بعد التزام الصمت والسكون محاولا التفكير بلا جدوى .. اخذت اقفز فى الشقة كالمذبوح . ادفع الابواب وارتمى تحت السرير وتحت المقاعد . افتح الدولاب واحدق .. لم يعد لى راس يفكر . لم تعد لى عينان لأرى .

اسرعت اهبط الدرجات . انعطفت الى البواب . دفعت بابه . نهض من فراشه وتثاءب .

ــ اين الاولاد ؟

ــ اولادك ؟

ــ نعم .. اين ذهبوا .

ــ وكيف اعرف ؟

صعدت السلم فى قفزتين الى الشقة المقابلة .. بعنف وغيظ طرقت الباب .

ــ اين الاولاد ؟

ـ أليسوا بالشقة ؟

هبطت السلم فى قفزتين . فوجئت بزوجتى تجتاز باب العمارة . تحمل ابنتى الكبيرة نهى ، ويدها بالشاش مربوطـة . توقفت . تنهدت . جلست على السلم .

قالت : امسكت الصغيرة السكين ، حاولت الكبيرة ان ..

العصفور والريح



العصفور والريح

طائرا كان .. صفيرا وجميلا .
مضى يبذل الجهد كي يستنقذ من الريح بعض القش .
وكلما جمع قشة اختطفتها الريح وتولت بعيدا عنه .
يسرع الطائر في اثرها .. يضرب بجناحيه .. يضرب ويضرب في حماس دون أن يحقق اى نصر او يمسك بقشة .
طال سعى الطائر والريح لا تهمد .
كلما جمع قشة اختطفتها الريح .
بدا التعب ينهش فيه والانفاس تتراجع رويدا رويدا .
والخطوات بدت ثقيلة ، وشرعت حركته في الخفوت .
واخيرا ..
سقط الطائر .. صفيرا وجميلا كان .

***

تمنيت قدحا من الشاى وأنا منجذب الى احدى سوناتات البيانو لبيتهوفن .
الانغام تترى في ايقاعات سريعة مضطربة كاهتزاز المرتعد .
تدفق اللحن بلا رتابة .
تمنيت قدحا ساخنا من الشاى .. هممت ان انهض .. اقعدنى البرد ولزمت الفراش .
تدثرت ، لكنى مع اللحن العذب نسيت البرد . تغلغلت الانغام في جسدى . تسربت كالدفء . كالاطمئنان . كالحب .
تغلغلت فيها . تلاشيت . اتحدت .
رايت على الجدار صورة الطائر المناضل .
صفيرا وجميلا كان .

الايقاع الموسيقى يرسم بكل نغمة جزءا من ملامح الطائر الصغير اجنحته المتوترة . منقـــاره النشيط . دوامات الريح . الانفاس المضطربة .

لماذا تمدد الطائر هكذا وتفتت .

صغيرا وجميلا كان .

***

دقات واهنة تتسلل من خلف البعد ، من وراء القدرة البشرية على الانصات ، تشير الى انفاس الطائر ونبض قلبه .

اذن فما زال حيا .. فرحت وكأنى انا الذى عدت الى الحياة ..

فلا ادرى كيف بدا لى كأنه انا .. وكأنى هو ..

بالأمل انتظرت ان يهم الطائر من مرقده . ان يرفع راسه . ان يهز جناحيه . أن يصرخ . أن يقول شيئا اى شىء .. او حتى .. حتى يموت .

ولكن الانفـــاس ظلت بين بين .. تهمس وتعترف بالعجز ، وتتمسك فى الوقت ذاته بالخيط الدنيوى العجيب ، وكأنها تقول لابد من الحياة .

متحفزا بقيت أرقب حالته .

تعالت الانغام رويدا رويدا ، بعينى استمع اليها . نهض الطائر بعينى أراه على الجدار ، تحمله الانغام المتصاعدة . ثابتا وقف على قدميه . تعالى النغم فى نقر سريع . فجأة انقض الطائر على القش بجناحيه وقدميه ومنقـــاره .. بـكل شىء . انقض قبل ان تفيق الريح .

تقدمت منه الريح تزوم وتعوى . الى الفضاء صعد الطائر من بين يديها . انطلق الى عشه الجديد .

ما زال النغم يرسم الصورة بحنكة واتقان . وضع الطائر فى عشه الحمولة وآب .. هدأ اللحن .

تعلق الطائر بغصن شجرة ، يرقب الريح الحائرة . حشد عزمه وصلب عوده وزكى حماسه ، واندفع يجمع القش .

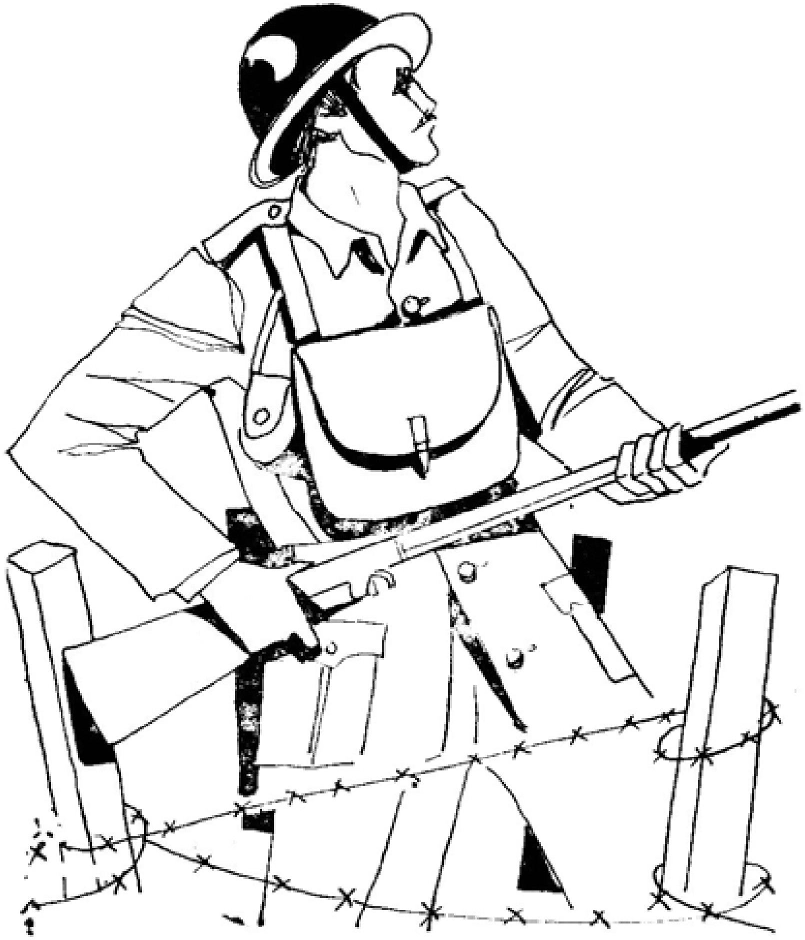
مع كل قشة ينفعل النغم ويتوتر ، تزداد الهجمات وتعلو النقرات وتقوى ارادته . ينقض وينقض ، يجمع ويجمع والريح تدور حوله متعثرة .

وحين امتلأ بالقش فمه ، صعد الى الفضاء وانطلق الى العش .

فى رقة ووقع حنون بدا يبنى على الجدار عشه ويسويه ، أسمعه باذنى يبنى ويسوى . يجرب فى العش صدره ويقيسه على جناحيه. يقف فيه ثم ينام ، يبسط رقبته الى اقصى مداها . هل ثمة خطر ؟ .. هل يمكن فى عشه الجديد أن يكون فريسة ..

نهض . مسح الاغصان والفضاء بنظراته من اسفله ومن اعلاه .. كل شىء تمام .. حط الطائر ونام . وسـكنت اصابع بيتهوفن فوق المفاتيح .

لحظات قبل ركوب الحصان



لحظات قبل ركوب الحصان

فرقا ترتعد المياه الملونة . تتكسر الوانهــــا المتعددة تحت وهج الشمس . تسمرت الجبال تحدق .

العيون خنادق . المحاجر غاصت فى الرءوس . النظرات تراجعت لتنطلق . تطوف بالساحة العريضة . ترقب وتراقب .

تثلج الهواء . لا شهيق . لا زفير .

تفرغت المسافات بين الاشياء وتلاشت . تعرفت الاجسام الى الاجسام . تلاقت فى التحام .

بمرور الوقت غدت اجساما مادية كل الاصوات . احجارا .. رصاصا لا نعرف انه انطلق الا اذا قتل .

دوى . انواع مختلفة من الدوى ، وجميعها لها لون واحد . لون الخطر والرعب . لها هدف واحد . الموت والدمار والسحق .

قسموا وحدات البلدوزر الى مجموعات . على كل مجموعة ان تعبر القناة بآلاتهــا الثقيلة . تقتحم السد الرملى . تشق صــدر الموت .

ثلاثة كنا وضابط . انا أصغر الجنود سنا واحدثهم عهدا .

فى قلب الشمس تماما وقفنا نرقب دورنا للعبور . دورنا مازال فى بطن الزمان . الزمان تكسر وتفتت ، ثم تضاءل وتبخر . شعرنا اننا سنهبط من طائرة بلا مظلة . لم يبق الا تحديد الموقع .

تحول الزمان هذه اللحظـــة الى مكان .. منتهى التركيز على المكان . عيوننا وقلوبنا معلقة بالضفة الاخرى من القناة . وبذلك المرتفع بالتحديد . انا نفسى كنت ارنو لأول مكعب رملى سأكتسحه بالبلدوزر . هذا هو الزمان .

اما المــكان فقد تحول الى زمان . كل شىء محســـوس وملموس

اصبح لحظة . انا اصبحت لحظة . تك وانتهى . مجرد تك . ادنى وحدة من وحدات الزمن أيا كان اسمها .

حين تحولت الى لحظة فقدت ذاكرتى . تلاشت من راسى كل المعلومات . أى معلومات . لا اعرف شيئا عن اسمى . اسم عائلتى . قريتنا الصغيرة . أيام الطفولة والدراسة . اصدقائى . حنان امى . أغنياتى المفضلة . نصيبى من تركة عمى .

كل شيء ضاع تماما وضعت .

تحولت الى لحظة . فقدت ذاتى ومعالمى واصبحت زمنا ما .. يوما او سنة . دقيقة . ثانية لا ادرى . يحدد ذلك خروج الرصاصة.

اصبحنا كلنـــا نمثل الزمن المتجسد فى الاشياء . المتمثل فى المـكان . الزمن مفروش فى هذه البقعة من العالم .

كل من تحمله قدماه الى هـذه البقعـة ، يصبح شيئا آخر غير الانسان . يدك جيدا ويفرم ويضفط ويكبس ويسحق ويفـــدو لحظة .

وعيت لنفسى فألفيت انى متشبث بالمدفع الرشاش بيدى . ساند وعيى لا وعيى . تطابقا . اتفقا . توحدت . اصبحت كلا واحدا وكنت أجزاء متناثرة . زاد تشبثى بالمدفع . التحمت بالحديد انه اصدق الاصدقاء فى هذه اللحظة .

سمعت هاتفا ما من داخلى . من خارجى . لا ادرى يقول الموت هنا هو الشيء الوحيد الذى يجب ان نثق به ونوقن بحقيقته .

عبرت افكارى الحدود والقناة الى العدو المستعد هناك .. هناك العيون خنادق والنظرات تراجعت لتنطلق . تثلج الهواء . لا شهيق لا زفير . تفرغت المسافات عندهم بين الاشياء .

فى قلب الشمس تماما وقف كل منهم ينتظر دوره للعبور .. الزمن تكسر وتفتت . تحول الى مكان . منتهى التركيز على المكان .

اما المكان فقد تحول الى زمان . كل شيء محسوس عندهم اصبح لحظة . تك وينتهى كل شيء . الجندى العدو هناك فى الجـانب الآخر تحول الى لحظة . مجرد تك وتحذف كل علامات وجوده .

اصبحنا كلنــــا ـ نحن والاعداء ـ متحدين متناغمين منسجمين متشابهين فى كل شيء . الزمن المتجسد فى الاشياء .

قلبى يدق بعنف . الاسنان تطحن بعضها . الشفاه لم تعد ضفافا جلدية للفم . لكنها بالقابض الفولاذية أشبه . أو فوهة بركان ما زال ينفث من جوفه الحمم .

اصدر الضابط أمره الى داود ، وهو أقدمنا كى يتقدم . انقض داود على الآلة كى يتقدم . صرخ السولار فى بطن الحديد المتحفز ، وكأن الضابط اصدر أمره الى الآلة ايضا .

بدا داود فارسا فوق حصانه . شامخا . مجتاحا .

عبر القناة . قرر أن يكتسح العفن المتراكم فى احضـــان سينا والسنين . اعد السكين . للآلة سكين ضخم كمقصلة اسطورية .

تقدم داود . شق السد الرملى . تقدم داود . تقهقرت الرمال . ارتعدت . دنا من آخر السد الفليظ .

فجأة . تطايرت الآلة فى الفضاء شظايا ، وتبعثر الفتات من لحم الحصان ، والفارس ايضا .. فتات .

حلقت فوقهما هالة قاتمـــة من اللهب والدخان كأنهما من نفثات الحزن عليه نفثه .

أحنى الضابط رأسه وأحنيتها . تنهدنا . انتزع الاسى من مكمنه كل شيء . انخلعت قلوبنا . انقضت عليها المصيبة فدكتها فى الصدور .

انتصبت المشاعر فى كينونتى كالاشـــواك . كالرماح .. الثورة الغضب . الكرامة . الشرف . الثأر . الدم .

بصقنا جثث القلوب المحطمة . تخلصنا من غيبوبة الالم .

قفز الضابط عاليا ، وبكل ما يملك من غضب ، اصدر الى الجندى الثانى يوسف امره كى يعبر ، كأنه القـــائد فى فرقة موسيقية ، مندمجة تماما فى ايقاعات اللحن العنيف .

برغم ارتفاع الآلة ودون أن يستند اليها ، كان يوسف فوقهـا فى قفزة واحدة .

ادار المحرك وهم بالانطلاق ، ثم لاذ بالصمت لحظات .

هدأت النغمة الصارخة . بدا صمته غير منسجم مع الاحداث .

راقبناه بفزع . تمتم ببضع كلمات غير مسموعة ، ثم هبط .. عبث الشك بالصدور .

أخرج من صدره بطاقة بها عـدة صور لاولاده ورسالة وسلسلة ذهبية ، سلمها للضابط .

انفجرت باكيا .

فى هذه اللحظة التى يغوص الزمان فيها وفينا ، ويحفر له اعمق الخنادق . فى هذه اللحظة التى تتهتك فيها اضلعنا ، فتنزف بعنف . فى هذه اللحظة التى ترتجف فيها المدافع فوق رمال الفناء ..

بكيت .

ابكى يوسف ذو الذيل الطويل من الاعباء واللحم والدم والحب والحكايات الساذجة . ربما هناك مائة شخص ينتظرونه ، وقبلهم جميعا طفله الصغير الذى يترقب أباه وهو عائد اليه بفارس مهيب ، على حصان من الحلوى أو حصان من خشب .. لعبة للعيد القادم .

بكيت .

اسرعت الى الضابط . رجوته ان يجعل دورى قبل يوسف .

رفض . صرخ يوسف .

— لا . لست جبانا . هذا وطنى وهذه ارضى وذاك ثأرى .

وفتات الجسد الملقى هناك الآن ، حارا مجنونا ينتظرنى .

وداود يعرف انى انا القادم . لا تقل هذا .. راسى لن يدفن فى التراب ابدا . انا لن اموت حتى لو عدتم بدونى .

بكيت .

عصرت الجفون وصرخت .

— ارجوكم . سوف اقتل نفسى ان لم افعل . ارجوك يا حضرة الضابط . ارجو يا امباشى يوسف .

رفض الضابط ورفض يوسف .

هويت على يدى يوسف اقبلها . وجسدى المحموم مهتاجا يهتز .

— الموت ارحم منكم فارحمونى . ارحمونى .

اخيرا وافق الضابط فقفزت . وافق فطرت .

احتضن السماء ، وادوس حصانى الحديدى المملاق ، فيزمجر ويرعد وينتفخ صدرى وانا اعبر القناة . امزق السد الرملى .

اشق فيه طريقا فسيحا لقول الدبابات .

رفعت السكين . زرعته فى الرمال . غرفت جبلا من الرمل . حملته والقيته بعيدا ، غرفت مرة ومرة . صار لحصانى خنـدقا كبيرا . تمدد فيه وسكن .

تلفت يمينى وشمالى ، اكتشفت انى لم اعد وحيدا .

الآلات والدبابات تبتلع الارض فى تحفز ولهفة . وراءها وأمامها وقلبها الجنود . بشوق مجنون يخوضون بعيدا فى الصحراء ، وتزهر مواضع الاقدام .

السقف



السقف

ـ ١ ـ

صحوت من نومى مذعورا على صوت ارتطام شديد .

اصخت السمع مفتوح العينين ، فلم يبلغنى غير صدى الصمت المكمور .

نهضت بجزعى العلوى ، ونهضت زوجتى .

مضينا نبحلق فى الظلام بعيون فزعة . نسأل العتمة ، ونفتش فى اثاث حجرة النوم عن سر هذا الدوى الهائل .. وقد كان هائلا بالفعل حين صك سمعى وانا فى أعمق أعماق النوم ، جسدى مكدود . ملتصق بالسرير ، وجفونى متشبثة بجفونى .

من خلال زجاج الباب ، تسرب الى عينى بصيص من نور المطبخ ، وحريص انا على ان يبقى مصباحه الكليل مضاء طيلة الليل ، يؤنس وحشة من يستيقظ من أولادى الثلاثة ليقضى حاجته لرى الظمأ أو للتبول .

مددت يدى وضغطت زر المصباح المجاور لى ، وأول ما فكرت فيه هو ابنتى الصغيرة نوسة التى تعدت العامين بشهور ، بحثت عنها فى سريرها الصغير وهو معنا فى نفس الحجرة ، الفيتها فيه ولكنها دارت ودارت ، حتى اصبح راسها فى موضع قدميها .

حملقت فى الغرفة وحملقت زوجتى ، لنطمئن على ان كل شىء فى مكانه ، وفى مقدمة ما خطر ببالنا كسبب لهذا الضجيج ، ان كرسيا مال ووقع ، أو ربما هى القطة التى عودتنا على الزيارة كل ليلة .. لعلها قفزت فوق المنضدة فأوقعت الكوب او اصيص الزهور . شىء ما من هذا القبيل .

ولكن احدا منا لا يستطيع ان ينكر انه فكر ـ بغريزة الخوف

الكامنة ـ ان بالبيت لصا .. وان هذه الضجة سببها تعثر اللص فى كرسى أو منضدة صغيرة أثناء سعيه الحثيث فى جمع ما تقع عليه عيناه .

حام هذا الخاطر بحماس فى ذهنى انا على الاقل ، لان وجود اللص فى بيتنا معناه ان اتحرك ، وافعل شيئا ايجابيا يعبر عن شجاعتى من ناحية وينقذ الدار مما يحيق بها من ناحية اخرى .. وليس من المقبول ان اسمع كل هذه الفرقعة التى أعلن بها هذا اللص الخائب عن نفسه ، واظل انا قابعا فى السرير ، احملق فى الحجرة واخمن .

لكن زوجتى حادة البصر قالت فى فزع وحدة : انظر .. ان زجاج الباب مكسور .

وجهت بصرى الى حيث وجهت بصرها .. الى زجاج الباب .. انه بالفعل مكسور .. اذن فقد آن اوان العمل ودقت ساعة المخاطرة .

نزلت من السرير .. اسرعت انظر الى الردهة من خلال الفجوة مستعينا بنور المطبخ .. افتش عن سبب كسر الزجاج .. واود لو اتعرف على الجانى قبل ان يفلت .

لم الحظ ما يثير التفاتى ، اطبقت يدى على مقبض الباب ، وجذبته لاخرج واطمئن على باب الشقة والمنافذ .

تولتنى الدهشة فلم يفتح باب غرفة النوم حين جذبته .. عالجت المقبض وجذبته من جديد ، فلم يطاوعنى ، وبقى الباب الخشبى مكانه ، مسحت الباببنظراتى من أسفله الى اعلاه .. الباب له مقبض فقط دون قفل .. فلم لا يفتح !!

عاودت الجذب بشدة ، لاحظت تشبث الباب بالارض ، أخذتنى الدهشة ، كان الباب يعلو الارض بفارق كبير لا يقل عن سنتمترين ، ولطالما عبرت من تحته الفئران .. وقعد كسلى عن الاستجابة لدعوة زوجتى باستكماله بشريحة من الخشب .

اختفت هذه الفرجة حتى غدت التحاما كاملا بالارض . عاودت

الجذب فاذا الباب مقيد تماما بالسقف ايضا ، وكان بينهما فارق يسير ، فأين ذهبت هذه الفروق ؟

بدا الباب كأنه يود مطاوعتى من أوسطه ، ولكن طرفيه العلوى والسفلى يأبيان الاستجابة ويصران على التمسك بالارض والسقف .

كانت زوجتى طوال محاولاتى الخروج من الباب والتخلص من خيوط الدهشة التى تعثرت فيها ، تواصل حديثها ، وتذهب ظنونها مذاهب شتى .. ولم يكن سمعى كله لها ، لان حواسى كانت معى فى معركة الباب ، ولا اكاد اذكر من كلماتها الا قولتها العلمية الشهيرة .

ـ لا تنس أن الخشب يتمدد بالبرودة .

تقصد أنه يتمدد بالماء . أو بالتحديد الواضح تقصد ان الخشب ينتفش فى الشتاء ، فيحتك بالارض على هذا النحو .. ولم اعترض على كلامها على الرغم من اننا كنا فى شهر مايو .

ظل سيل كلماتها يواصل الانهمار وانا احاول منعها .. لانى كنت فى عالم غير عالمها .. فهى الآن تبحث عن الاسباب من وجهة نظرية بحتة . لكن المسألة تحتاج الى تركيز عملى .

اريد ان اعرف من الذى حاول سرقتنا وماذا سرق ، ولماذا اغلق علينا الباب على هذا النحو العنيف ، ولم ينقذنا الا صراخ الزجاج المتفجر .

وتذكرت الاولاد وتساءلت .. الهم علاقة بالموضوع .. لا اقصد طبعا ان يكونوا هم الذين اوصدوا الباب ، ولكن أقصد هل السارق او المقتحم دارنا حاول ايذاء أحد من الولدين مجدى أو جمال اللذين ينامان فى الحجرة الداخلية .. فاغلق علينا حتى لا نحول بينه وبين ما يريد .

لم يطل حبل تفكيرى ، ولكن حماسى اشتد فجأة فجذبت الباب بشدة ، فبرز طرفه من حلقه العلوى ، اخذت اجذبه عدة سنتيمترات تتلوها عدة سنتيمترات حتى فتحته الى آخره ، وفوجئت بالزجاج المتناثر داخل وخارج الغرفة ، وبدت الشقة كأنها مقهى شهد معركة

ساخنة بين مجموعة من الخاسرين على منضدة القمار .. مع ان المساحة التى يشغلها الزجاج فى الباب ليست الا « شراعة » مربعة لتوصيل النور من والى الغرفة لا يزيد طول ضلعها عن نصف المتر يقسمها قضيب خشبى .

اسرعت الى غرفة نوم مجدى وجمال .. وجدتهما بخير ، عدت الى باب الشقة وزوجتى فى اثرى ، تساندنى فى مواجهة اللص المحتمل .

الفيت باب الشقة مدقوقا فى مكانه ، يؤدى واجبه الليلى بأمانة ، لم يتعرض له أحد بالعدوان ، وكل من المزلاج الصغير والمزلاج الكبير فى خندقه ، والمساحة الزجاجية الصغيرة سليمة والشبكة الحديدية من خلفها كما هى .

الحمام والمطبخ .. كل الابواب والنوافذ سليمة .. شىء غريب .

جلست على كرسى الردهة ، اتأمل الموقف وازنه ، احسبه .

اجمعه واطرحه ، اعود فاضربه واقسمه ، وانا بعد كل هذه العمليات التى يذهب بعضها فى مجال الهندسة ، وبعضها الآخر ظنون فى الطبيعة ، وبعضها الآخر فى الالهيات .. لا احقق اى نتيجة لان فكرى ظل مقيدا بحدود الدهشة والتعجب والاستغراب.. وكانت كلمات زوجتى وافكارها تتوالى بشكل متواصل زاد ارتباكى واقعد فكرى .

ــ من الممكن يا ابو مجدى ان يكون كذا .. وممكن ان يكون كيت.. او يجوز يا ابو مجدى أن يكون .. لا نستبعد يا ابو مجدى ان السبب هو ... ولماذا لا يكون كذا .. لان السيدة ام احمد ساكنة الدور الثانى فى العمارة المجاورة قالت لى مرة .

ولم أستطع ان أمسك بالخيط المعقول الذى يوصلنى الى سبب ما حدث .. صرخت فيها من غضبى : يا ستى اهداى .. اهداى قليلا ..

انكتمت واشعلت سيجارة .. وتصاعد احساسى بحرارة الشقة وشعرت انى داخل علبة محكمة الاغلاق .

فى ظل سكوت زوجتى ومع دخان السيجارة هدات اعصابى ، ولما اطفاتها قلت لها : على اى حال حصل خير .. هيا ننام والصباح رباح .

وقبل ان ننهض .. نعم .. قبل ان احمل نفسى حملا عن الكرسى، دوى فى سكون الليل انفجار وارتطام .

التوت رقابنا مع الصوت ، وتنبه وعينا ، وافقنا من الدهشة والفزع ، فاذا آذاننا موجهة الى المطبخ دون أن ندرى .

اسرعنا ، فاذا زجاج نافذة المطبخ قد تحطم .. وبدت فجوة الظلام غير منتظمة الحدود .. والزجاج فى الارض وعلى الثلاجة وفى الحوض وبين الاوانى .

لقد تفجر الزجاج ونحن ايقاظ ، ولم نجد لصا ولا حجرا ، ولم تمر دقيقة حتى صك اسماعنا ارتطام ، وكان لباب غرفة الاولاد.. وفزع جمال وبلغتنى اصداء جهوده فى فتح الباب ، فذهبت اليه وعاونته حتى خرج .

قال : ماذا هنالك يا ابى ؟ هل بدات الحرب ؟

قلت له وربما لم اكن انا الذى قلت ، لانى لم اكن فى كامل وعيى .

ــ ربما يا ولدى .

توالت الانفجارات والارتطامات .. واستيقظ مجدى ولم تستيقظ نوسة ، ربما لحاجتها للنوم بعد شقاوة النهار كله .

توزعنا فى الردهة الرحيبة ، ينظر كل منا للآخر ثم يرنو للاشىء ، ولا ينطق بحرف بعد السؤال الاول .

ــ ماذا جرى ؟

واقصى ما يمكن قوله ردا عليه : لا نعرف يابنى .. كما ترى .. لا حرب هناك ولا غارات .. لا لصوص .. ولا مشاجرات.. لا يوجد بالشارع اطفال ليقذفوا البيوت بالطوب .

ونحن فى الليل حيث لا يتعرض الزجاج للشمس فنقول : اصابه سرطان ..

ومن الغريب ايضا اننا لم نكن لننطق بأى كلمة ، لان هذا السلوك الفاضب من جانب الابواب والنوافذ كان متصلا ومتتابعا ، كأنها شخصيات تؤدى ادوارها بحماس فى مسرحية تقرر ان يكون عرضها فى بيتنا .

باب المطبخ ، تتلوه نافذة الحمام ، بعدهما باب الشرفة ، ثم نافذة غرفة مجدى وجمال ..

امكننى بعد فترة أن ادرك ان هناك ضغطا ما على الجدران لا ادرى سببه ، ولان الابواب من الخشب والزجاج اى انها اضعف ما فى الجدران تنوء بالثقل فتتحطم .

.. لذلك اسرعت بخلع ما لم يتهشم .

خلعت انا باب غرفة الطعام .. فى نفس الوقت خلع مجدى وهو شاب كامل الرجولة والنضج نافذة غرفة الجلوس ، وخلعت زوجتى بمساعدة جمال باب الحمام . وهكذا تعاون الكل ، فخلعنا بأيدينا كل منافذ الدخول والخروج فى بيتنا العريض .

ورغم قيامنا بهذا الجهد الا أن الانفجارات كانت تسبقنا لتحطم الزجاج أولا .. وتتوالى بعد ذلك فرقعتها كمجموعة من القنابل الزمنية التى يضعها الاعداء بحيث لا تنفجر كلها فى وقت واحد ولكن فى اوقات متتابعة .. دقيقة بعد دقيقة .

تحولت الدار كلها الى دهشة وفزع وخوف وعجز .. وانا من الحيرة جلست ادخن وادخن . وارنو بأسى للابواب التى تحطمت .. وبصعوبة شديدة افكر فى الله واتمسك بأحباله المدلاة من السماء .. علها تشدنا وتنقذنا من هذه الهوة .

وبعد أن شبعت كل الابواب تفجيرا وتكسيرا ، وحسبت الحسبة، فوجدت ان الكل تقريبا قد عبر عن رايه وشعوره فى الضيق الذى يحيط به والضغط الذى يقع عليه ، هدات الساحة وخيم صمت حزين ، وساد سكون مهدد ، فأمرت زوجتى والولدين بالذهاب للنوم .

اصرت زوجتى على أن اسبقها الى الفراش ، والحت ، فسبقتها

اليه .. لكنها اسرعت قبلى الى النوم .. اما انا فقد طلع على النهار وتدلت من حولى خيوط الصباح وانا جالس فى الشرفة ارنو للوجود فى امل ، اشكو نفاذ سجائرى حتى انى كنت أزفر انفاسى بلا دخان .

امامى النيل العريض ، يتدفق فيه الماء ، وعلى جانبيه تمتد الخضرة بلا نهاية والضوء يتقطر فى كل العيون .

تركت الشرفة المطلة على حديقتى والنيل ، وذهبت لغرفتى الخلفية المطلة على العمران .. الديار والشوارع والناس والسيارت ونداءات الباعة .. تمر نظرتى بكل بيت .. تفتش ابوابه وزجاجه .. تحوم حوله ، كل البيوت هادئة مستسلمة ، وكل النوافذ والابواب مغلقة وسليمة ، والزجاج فى مكانه يجلب لاهله بعضا من اشعة الشمس المشرقة ..

وكنت اسائل نفسى .. لماذا بيتى أنا ؟ .. لماذا بيتى انا ؟

— ٢ —

لما استيقظت زوجتى ، طلبت منها الا يقترب الاولاد من الزجاج المحطم والخشب المهشم .. وكأنى وكيل نيابة يرجو عدم المساس بالجثة ومكان الحادث والاشياء حتى يحضر خبير البصمات .. لم افكر فى شيء على الاطلاق .. فما حدث قد حدث وامرى الى الله ..

للمت نفسى على اى صورة او كما اتفق .. وذهبت الى العمل .. اشعث الشعر ، اصفر الوجه ، بلا ربطة عنق .. على عكس ما عرف عنى وعن هندامى ، تلقانى الطريق فضيع خطواتى وبعثرها فى كل اتجاه .

ولم يكن ذهابى للعمل عن رغبة فى العمل حقيقية ، ولا محاولة للهروب من مواجهة المشكلة ، لكنه على العكس كان بحثا عن السبب وعن الحل .

اعتدنا التشاور انا وزملائى بالمكتب ، يعرض كل منا ما يحس به ، مهما بلغت مشكلته من الخصوصية حدا بعيدا .

اشاروا على بعد العجب وعدم التصديق بأن اسأل احد المهندسين المعماريين ، فلديه بالطبع اجابة أو تفسير لهذه الظاهرة ، او على الاقل رأى فيها .. وبدت لى ولهم سذاجتى حين سألتهم عن المهندسين ، اذا كان من الممكن أن ابحث عنهم فى دليل التليفون .

قالوا جميعا فى بساطة : فى الادارة الهندسية .. بمجلس المدينة .

واحد من المحنكين بالمشاكل ، المغرمين بصفحات الحوادث بالجرائد اليومية والاسبوعية ، اشار على بابلاغ البوليس من باب الاحتياط ، ولن يضيرنا أن يحرروا محضرا بالواقعة ، نحتفظ به لاية حقوق مستقبلة .

بعد الحاح طويل وسخيف وافقتهم انهاء للمناقشة فقط ، وليس اقتناعا بأن الامر يحتاج للشرطة .. فقد تيقنت تماما بأن المسألة تخص منزلنا كبناء ، وليست هناك اى احداث جنائية او اعتداءات خارجية او حريق ، ولم تحدث سرقة ولا توجد هناك تهمة من اى نوع .

لذلك يممت وجهى شطر مجلس المدينة .

اجتزت الباب الضخم .

واجهتنى ابواب زجاجية كثيرة ، بل وجدران كاملة من الزجاج ، وبين الابواب والجدران ، تجلس وتتحرك مجموعات نملية من الموظفين ، يصدر عنهم طنين عال . اشفقت عليهم من هذه الابواب فى حالة حدوث ضغط عليها .. سيصيب مربع الزجاج الواحد عشرات .

نمل .. نمل .. نمل .

نمل يفعل كل شيء واى شيء ، يرسم ويطبخ ، يعمل ويأكل ، يكتب ويتفرج ، يدخن ويضحك ، يبكى وينام ، يتسلى باللب وبالكلمات المتقاطعة وغير المتقاطعة .

سألت عن الادارة الهندسية .. دلونى عليها .. حسن حظى اوقعنى فى مهندس طيب .. اخبرته بما حدث .. أحس بغرابة قصتى .. اهال عليها اهتمامه .. خفف قلقى وشاركنى فيه .. قرر ان يتبنانى .

اوصانى ان اقدم طلبا واذكر فيه ما حدث .

كتبت .. اخذ الطلب وعرضه على وكيل الادارة هامشا بتوصياته وما يتعين عمله .. حصل على تأشيرة بخروج مهندس معى للمعاينة ، صعد الى مدير الادارة .. عاد بتوقيعه الى وكيل الادارة لتحديد المهندس .. فوضه الوكيل ..

خرجت انا والمهندس ..

شكرت الله ، الذى لم يرد لى عذابا روتينيا كان متوقعا ان يكون اقسى من العذاب الفعلى ، المتمثل فى مشكلة الانفجارات .. بلغنا الدار .

داري موقعها جميل ، يراها الناس غاية في الجمال .. يحسدونني عليها .. الواجهة عريضة تطل على النيل مباشرة .. مساحتها كبيرة نسبيا .. تفصلها عن النيل حديقة خصبة تزهو بخضرتها وربيعها الدائم .. تنمو فيها كل البذور وتثمر فيها كل الاشجار ، اما الدخول الى البيت فمن الخلف عن طريق ممر ضيق يفضي الى الحديقة ، التي يحيط بها سور حديدي بسيط ، تلي ذلك بضع درجات الى باب البيت ، المرتفع عن كل البيوت المجاورة كانه فوق ربوة .. يتكون من طابق واحد ،ولكن الواقف في شرفة المطبخ الخلفية او الـذي يطل من نافذة حجرة مجدي ، او من حجرة المسافرين الداخليـة الشاغرة دائما ، او من مسقط النور البحري يواجه الدور الثاني العمارات المجاورة ، والمدينة كلها تقع خلف دارنا .

طاف المهنـــدس الطيب بالبيت الفسيح .. اعجب بتنسيقه وارتفاعه واتساعه ، بمنـافذه وشمسه وهـوائه ، ببنائه المتين ، بجدرانه السميكة الصلدة رغم قدمها ، بدرجات السـلم الرخامية المفضية الى النيل وتتخللهـا العروق الصفراء .. اللامعة كجذور الذهب ، وعمودي المرمر في بداية الردهة والثريات الفخمة .

اعجب المهندس بالسقف الحديدي ، بالارض الثابتة ، بالبلاط الذي لم يجدد منذ عشرات السنين ، دون أن يتكسر من طول الاستعمال او يهبط في اي موضع .

فحص المهندس كل ثقب في البيت ، واطلع على خريطة المبنى وأوراقه وكلها مسجلة وموثقة ، رغم انه بني في وقت لم يكن فيه توثيق ولا تسجيل ، كانت مثل هذه الامور لا تزال مجهولة من الوجهة الرسمية ، وكانت عمليات البناء تتم عشوائية وبلا تخطيط لكننا كنا نعرف ما يجب عمله .. اقصد طبعا اجدادي .

قاس المهندس المسافة بين الارض والسقف في أكثر من عشرة مواضع ، ووضع علامات سنتيمترية لمسافة نصف متر في أربعة أركان في اسفل الجدران ، بحيث تبدا من اسفل مندرجة الى اعلى .

اخبرني المهندس وهو يبرح الدار ، انها بالفعل ظاهرة غريبة ،

جديرة بأن ينشغل بها المرء ، حتى لو كان من غير ساكني البيت ، وفي مجال غير مجال الهندسة والبناء .

وبالنسبة له فيتعين عليـــه اولا ان يطلع على تقسيم المنطقة وسيحتاج الامر لمعاودة الزيارة مرتين أو ثلاثة ، ولابد من اخذ راي اكثر من جهة مسئولة ومختصة ، وبعدها يضع تقريره الذي لن يرى النور قبل مضي أسبوع .

بعد ذهاب المهندس ، جلسنا نفكر جميعا في مسألة المنـــافذ المفتوحة وكيف نسدها ، ولو مؤقتا الى حين معرفة السبب .

واتفقنا على تعليق البطاطين القديمة على النوافذ الخـارجية ، ودقها بالمسامير حتى تصمد للريح ، والحمـــد لله ان الصيف على الابواب ولن نحتاج الى اغطية كثيرة .

زارنا المهندس مرتين وقد سبق له أن نبهنا الى ذلك ، وأطلع على العلامات الركنية التي وضعها على الجدران في كل سنتيمتر ، وحاولت ان أستفسر عن الظاهرة ، فلم يجبني الا بأنها ما زالت مجرد تخمينات وفروض تعوزها الاسانيد .

توجهت بعد أسبوع الى مجلس المدينة والتقيت بالمهندس ، عرض على مسودة التقرير الذي سيرفعه الى وكيل ومدير الادارة .

واوضح المهندس في تقريره انه بناء على المذكرة المقـــدمة من المواطن .. بشأن .. وبناء على تكليف سيادتكم لي بكذا .. فانه في يوم .. سنة .. قمت بالانتقال الى السكن الكائن في .. ملك المواطن السابق ذكره .. وبمعاينته تبين ما يلي .. ، ...

الى ان قال :

ولا علة في رأينا لهذه الظاهرة الا ان يكون قد حدث تسرب لمياه جوفية تحت المبنى ، ادت الى رخاوة في الاســاسات وتحلل في موادها الصلبة ، ونظرا لان السقف من كمر الحديد الضخم بمـا يمثل ثقلا غير عادي . ولان الجدران من الحجر الجرانيتي الصلد خالي الجير ، فقد هبطت الجدران التي تحمل السقف الثقيل ، وأصبحت تغوص بشكل يكاد يكون منتظما ، اذ بالمعـاينة تبين ان السقف

يهبط ، دافعا الجدران من تحته للغوص فى الارض المشبعة بالماء بمعدل شبه ثابت ، وهو نصف سنتيمتر كل اربع وعشرين ساعة ، وقد امكننا تحديد نسبة الهبوط بالاستعانة بالعلامات السنتيمترية، المتدرجة على الجدران فى مواضع مختلفة ، وقد اوضحت جميعا هذا الهبوط المتعادل فى كل المواضع .

واذا استمر ضغط السقف على الجدران ، وهبـوطها بهـذه النسبة التى انتظمت لاكثر من ثلاثة اسابيع ، فاننا نرى اخلاء المنزل من ساكنيه فى موعد اقصاه سنة من تاريخه ، وذلك لان ارتفاع الجدران اربعة امتار ، وبعد عام لن يتبقى لهم غير مترين وسوف يتعذر معها الحياة بالمنزل .

هذا وقد اطلعنا على .. وعلى ..

واذ نرفع هذا لكم آملين الامر باتخاذ اللازم .

نرجو أن تتفضلوا بقبول خالص الاحترام ...

مهندس / .. .. ..

انضم الينا مهندسى المكتب ، يستمعون ويدهشون ، وينظرون الى ، كانى شخص حكم عليه بالاعدام بلا ذنب ، شخص يستحق كل عطف البشر واشفاق كافة مخلوقات الله حتى طوب الارض .

قلت لأهرب من نظراتهم وادفع اذهانهم للعمل ، للبحث عن وسيلة لانقاذ الموقف :

— والحل يا باشمهندس
— تتركون البيت
— ماذا !!
— البيت غير صالح وخطر
— ودوركم ؟
— اخلينا مسئوليتنا
— الا يوجد حل آخر ؟
— الحل الوحيد مغادرة البيت

مشيت اجر قدمى .. تعوى الظلمات بامعاء روحى .. اذن فلابد

أن نرحل ، نرحل عن بيت آبائنا واجدادنا ، اصبحت الحياة فى منزلنا مستحيلة ، وامامنا فرصة لا تزيد عن عام ، بعـدها نكون فى الشارع ، فالى اين نرحل ؟ اين هى الشقة التى سنسكن فيها ؟

احمد جارنا يبحث لابنته عن شقة لتتزوج فيهـا منذ ثلاث سنوات دون جـدوى . وثريا بنت الاستاذ شفيق اضطرت بعـد سنتين واكثر ان تتزوج فى بيت ابيها . و .. و ...

اين اذهب ؟ ولمـاذا انا بالذات اذهب .. ودارنا لم تزل وطيدة الاركان متينة البنيان .. وما هى حكاية هذا الماء ؟

من اين جاء ؟ .. ولماذا لم يصب به غيرى ، وكيف يأتينى وأنا على ربوة ؟ .. ما هذه الاوضاع المقلوبة ؟

دارى . مقرى . تاريخى . املى . فرحى . اولادى . عنوانى . دارى التى يعرفنى الناس بها ويعرفونها بى .

هل جاء وقت يتعين فيه على ان ابرحها ؟ واتخلى عن حديقتهـا المزهرة ونيلها الصافى الرقراق .. وقد كنت اجلس على شاطئه كل عصر ، وارقب معه كل غروب ، فكان انيسى وصديقى وملهمى .

والمصلى العزيز الذى اقامه جدى بالقش ، وبنى ابى حوله سورا من الحجر .. كان جدى وابى من بعده ، يحب أن يتوضأ من ماء النيل رغم توفر المياه فى الصنابير،ويصلى على القش فى حضن النيل رغم الابسطة الشيرازية الفخمة التى تمتلأ بها الدار ، وتحت شجرة الجميز الضخمة التى يتجاوز عمرها مائة وعشرين عاما .

علاقتى بدارنا عريقة عتيقة ، فكيف ابرحها وفيها كل شىء عن عائلتنا المديدة المجيدة .

انفاس اجدادى . كتبهم . لوحاتهم . ذكرياتهم . صـورهم . بصمات اصـابعهم .. آثار اقدامهم .. زفير دخانهم .. انين جراحهم .. فيها سيرتهم . فرحهم . غضبهم . قلقهم . صراعهم . صبرهم . زرعهم . شمسهم . قمرهم . سهرهم . آمالهم .

جلست أدخن .. وجلست أبكى .

أخبرت زوجتى بمعنى ما جاء فى التقرير .

وبقينا شهورا نراقب البيت .. السقف والجدران والاشياء المعلقة على الجدران ، ونعجب كيف تدنو منا رويدا رويدا .

وخلال هذه الشهور كان بحثى عن سكن آخر يجرى على قدم وساق ، على الرغم من عدم اقتناعى تماما بهذا السعى ، فهو غير منطقى بالمرة ، وربما لانى اومن كما تعودت بأن الله لن يخذلنى ابدا وسوف يمد لى يد العون فى الوقت المناسب .

ولانى كنت اعلم ان بدايتى ونهايتى فى دارى ، وان حياتى وموتى فيها .. ولانه ليس من السهل التخلى عنها لابسط الاسباب ولا حتى لاعقد الاسباب ، فقد قررت اقامة كوخ خشبى كبير فى نصف الحديقة الايسر .

اخذنا نضع فيه كل ما يحين اجله من الاثاث ، لا بمعنى قدمه ، ولكن كلما دنا منا .. فأحلت الثريات كلها الى المعاش لانها تدلت واصبحنا نصطدم بها ، وكل ما نصطدم به نخلعه .. صورة جدى التى كانت تعلونى بمتر على الاقل ، اصبحت امامى ، وغدت عيناه فى عينى ، ونظراته تندس فى نظراتى ، وتكاد تلومنى ، وشاربه المنتصب فى اباء يحتقرنى ، فأتضاءل واخبىء نظراتى تحت اهدابى المنكسة .

رفعت صورة جدى حتى لا تكون سببا فى همى ، وخاصة اننى رايت نوسة الشقية ، ترميها بحصانها الجلدى القديم وتكاد تسقطها، ولحقت بها الساعة الاثرية الكبيرة التى كانت هدية من الوالى التركى لجدى الكبير اثر اشتراكه فى معركة حربية بمنطقة القرم السوفييتية .

وجاء دور صوان الفضيات المصنوع من الابنوس ، وضلفاته البللورية وأوانيه المنقوشة بالزهور الملونة ، تحيط بصورة جميلة ودقيقة لنابليون الثالث .

والملاعق الفضية الزاهية رغم عشرات السنين ، اذا ازلت عنها طبقة الاتربة ، تجلت بكل حسن عربة رمسيس الحربية وهو فوقها يقودها فى شموخ .

بعد العمر الطويل ، وبعد المجد والعزة نزعت كل الاوسمة التى تزين دارى والقيت بها فى الكوخ .. تحولت معانى الاباء والشمم الى رموز للضعة والضياع .. الى مهملات مكانها الكوخ او العراء .

هدمت « السندرة » التى كنت قد بنيتها فوق الحمام كمخزن ، وانزلت الدش ايضا وغدوت استحم باستعمال الخرطوم ، او اصب الماء على جسمى بكوز من الصفيح .

وخلعت اللمبات الكهربائية لانها دنت جدا منا . ونزعت عداد الكهرباء وسلمته للمؤسسة ، وكان لابد من العودة الى مصباح الكيروسين .

اما بالنسبة لعملى فقد كنت اذهب اليه بلا انقطاع .. ولكنى للأسف لم اقدم له ذرة من عقلى ، ولا دقيقة كاملة من انتباهى وتركيزى .

اجلس بين الزملاء صورة ، ارد عليهم وأسألهم وأجيبهم ، ولكنى كالنائم او السكران ، ولم يعد أحد منهم يسألنى عن دارى ، فقد اصبح امرها معروفا للجميع ، وسخروا منى ومنها بما فيه الكفاية، حتى استنفذوا فى مجالها كل قدراتهم على الضحك والاضحاك ، وهى قدرات عالمية خارقة .

بمرور الوقت اصبح الامر لا يعنيهم فى شىء .. وهذا هو حالهم فى كل ما يواجههم من مشكلات أو حوادث .. فهم فى البداية وعند سماع الخبر الحزين يبكون الى درجة الانتحار ، ثم تنبثق فيهم حالة عكسية تماما ، فيضحكون لدرجة البكاء ويسكرون على «حس» هذا الحادث لفترة .. حتى تتعادل النسبتان .. الضحك والبكاء.. الحزن والرضا .. ولا يعود هناك فى نفوسهم اى اثر لهذا الموضوع فينسونه تماما ويتمددون فى استرخاء حتى يدهمهم حادث آخر .

فهم اما ضاحكون واما باكون .. والاشياء الموجودة بالنسبة لهم هى التى يضحكون عليها او يبكون منها .. وما لم يفجر ضحكهم او بكاءهم فهو غير موجود ، بل هو العدم ذاته ،حتى لو كان انسانا وافر الانسانية .

.. توالى هبوط سقف الدار وانا المسحوق لا اجد مذاقا للطعام ولا مساغا للنوم ولا طعما للراحة .

شكوت لطوب الارض .

تظلمت لكل من اعرف ومن لا اعرف من المسئولين .

تحدثت فى المقاهى والمساجد والكنائس .

وكتبت للصحف .. بعضها نشر الخبر فى سطرين لا يقرآن ، وبعضها لم يحفل بالامر ، وربما لم يفهم معنى ان يهبط سقف احد المنازل حتى ياتى يوم ينسحق فيه أهله .. فى نظرهم لا ضير أن تشتعل دارك او تهدم .. لماذا لا تبحث عن غيرها ! ..

كنت احسبهم سيكتبون عنها حتى لمجرد كونها ظاهرة معمارية غير عادية ، يجب التعرض لها بالتحليل واستشارة المختصين واساتذة كلية الهندسة .. ولكن يبدو أننى أسأت اختيار الموعد الذى بعثت فيه الخبر للجريدة .. ويجب أن ألمس العذر لها ، فربما كانت مشغولة بحملاتها الصحفية المثيرة .

وصاحب الحاجة لحوح ، ويعتقد ان الكون كله يجب ان يتوقف لسماع شكواه .. لذلك آثرت أن اتكفن بالصمت . انصت لبضع يمامات سوداء سكنت القلب والاجفان ، فاذا جن الليل وهبط قاربنا فى بحيرة المساء ، شرعت تعزف لحنها الوحيد .

ذلك لان السقف برغم الشكوى يهبط ، والجدران برغم التظلمات تفوص وهى مثلهم لا تأبه بحالى .

وكما كنت وانا صغير أراقب عقرب الساعة الكبير وهو يتنقل بين أرقام الساعة ، اصبحت اقضى كل وقتى بالبيت ، فى مراقبة السقف ، وأخال نفسى رأيته مرة وهو يهبط . ولكن حساب الهبوط يجعل من غير المنطقى رؤيته .

اذ انه يهبط نصف سنتيمتر فى الاربع وعشرين ساعة ، اى مليمتر كل خمس ساعات اى عشر المليمتر كل نصف ساعة .. وهو امر صعب التصديق ، لا رؤيته فقط ، بل البحلقة لمدة نصف ساعة كاملة ، ليراقب الانسان الحركة داخل عشر مليمتر .

ولكنى اصدق نفسى .. انا نفسى اصدق نفسى اذا قلت انى شاهدته وهو يهبط ، نعم .. لان عينى ليست كعيون الآخرين ، وحالى ليست حالهم ، وقلقى اضعاف قلقهم .. ومصيرى على كف الرحمن ولا اقول على كف العفريت .

ففى احدى الليالى الصافية الحزينة الوحيدة التائهة مثلنا ، لنبهت الى السقف وهو يهبط ، وسمعت خشخشة فى أعلى الجدران، ورأيت الهبوط جليا مع العلامات المتدرجة التى قمت بتسجيلها كل نصف سنتيمتر من الارض حتى السقف ، كما فعل المهندس وهو يتابع الظاهرة ، وزدت عليه بأن اعطيت العلامات ارقاما ليسهل حساب ما فات وما بقى من السنتيمترات والايام .

وظل الهبوط دقيقا ومنتظما وبمعدل ثابت لا يختل يوما .

اتوجه كل يوم فى الصباح الى مواضع الترقيم الثلاثة ، ابحلق فى الرقم واتمنى فى كل مرة ان افاجأ بأن الرقم السابق ما يزال واضحا للعين ، لكنى لا اجده فى اليوم التالى ، ويغدو الرقم الجديد هو الاول فى القائمة .

نظام يطرد بلا تخلف .. والخوف كل يوم يزيد ويتمدد فى نفوسنا، يحتل مساحات جديدة .. والحيرة والضياع يستوليان على ، يوجهان سلوكى ، يفقدانى كل متعة ، يخطفان كل بسمة ، يمتصان كل أمل .

وتمضى الايام وكلما تمددت صامتا فى سفح السكون ارنو بشوق للحياة .. نبتت فجأة اشواك الخوف فى وديان الامل . وانبثقت فى عروقى دماء الفزع . فأرتد وارتد .. ارتد وارتد ، حتى يلتصق بالجدار ظهرى العارى .. واتضاءل واتحلل واهبط واذوب واصبح على الارض مجرد بقعة .

— ٣ —

ذهبت بعد مرور نحو عام وللمرة العاشرة الى مجلس المدينة ، وهم يعرفوننى ، ويسخرون منى كلما راونى لأنى سأحكى قصة معادة .

ولكنهم كانوا فى الغالب يرحبون بى لأجلس معهم قليلا واقص عليهم ما جد ، واذا لم يكن هناك جديد ، فيكفيهم ان يتذكروا شيئا مضحكا ، يخفف رتابة العمل ويخلع عنهم خيمة الملل ، فتهب عليهم نسائم البسمات .

قال لى أحدهم مرة : انت مقرر علينا هذه السنة .

ولكن واحدا منهم كان فى منتهى الغضب لحظة دخولى ، ولا يريد ان يرد على احد ، ويتشاجر مع كل من يمر امامه .

قال فجاة دون أن اساله او اقترب منه :

— متى يا سيدى يبلغ بيتك هذا عاليه واطيه كى نرتاح منك ومنه ؟

.. الى هذه الدرجة انا اسبب للناس الضيق ، وكنت قبل ذلك موضع سخريتهم .. تنهدت وحملت نفسى على الخروج دون ان اسال عن الحل .. ولكن مهندسا يتسم بالهدوء قال :

— أمن المعقول ان يحدث ذلك فجاة ، لابد ان تكون علامة ما ظهرت وانت اهملتها .. اقسمت له ان أول علم لى بهذا الموضوع هو ليلة الانفجارات .. فتنهد ومصمص شفتيه فى حيرة وقال : امر الله .. فمضيت فى سبيلى .

واول ما فعلته حين بلغت دارى ان حملت بمساعدة الزوجة المخلصة والاولاد كل ما بقى من الاثاث الى الكوخ .. منضدة الطعام ومكتبى والمكتبة واثاث المطبخ والدولاب والسرير والبوفيهات والتليفزيون .

وبعد ايام ذهبت الى مجلس المدينة فاستقبلنى احد المهندسين باهتمام .. ومضى بى الى حجرة مجاورة ، ليست حجرة المهندسين ، ولكنها كانت شاغرة من كل العاملين بها .

قال : فكرت كثيرا فى بيتك الى أن ابتكرت طريقة جديدة يمكن أن تحل الموضوع .

فرحت فى نفسى لان هناك من يفكر فى بيتى غيرى ، وهناك من يقلق ولو من قبيل ازجاء وقت الفراغ .

قلت له : هات بالله عليك .

قال : ما دامت الارض ثابتة كما قال المهندسون الذين زاروا البيت فانى ارى انه يمكن تثبيت اعمدة حديدية ضخمة ، فى كل غرفة ، تقف حائلا دون هبوط السقف عليكم .

رحبت بالفكرة وسألت عن مراحل التنفيذ ودور مجلس المدينة ، فرجانى ان انتظر حتى يسال المدير ، ولكن المدير رفض لان هذه المسألة لا تعنيه ، واضاف بأن ميزانيات الدولة ليست للانفاق على منازل الافراد .

قلت له : اذن الاشراف الفنى .

فتركنى وصعد للمدير ، فرفض المدير لان هذه المسألة معقدة ، وتحتاج الى العرض عليه بمذكرة مدموغة ، وتحتاج بعد ذلك الى العرض على الاجتماع الشهرى لمجلس المدينة ثم عرضها على لجنة عليا فى الوزارة .

وبعد المحاولات المستميتة التى لا تقل عن تقبيل اياديه .. وافق .. ومضى الامر متهاديا متبخترا ، يمر شهر فينقل خطوة ، ويمر آخر فيخطو خطوة اخرى .. وهكذا ..

واخيرا وافقوا واشتريت الحديد ، ودكوه فى الارض وامتد ارتفاعه حتى بلغ السقف .

كان قد مر عام ولم يعد السقف يعلو الارض الا بمترين .

ومضت ايام خلت فيها ان السقف قد توقف ، وحدثتنى نفسى ان الحديد اذا كان قد استطاع ان يحتجز السقف ويمنعه من الهبوط عدة أيام ، فربما تمكن من منعه الى الابد .

ومضيت اراقب الحديد والسقف فى اهتمام متفائل ، ولكنى سمعت خشخشة فى بطن الليل ، وتبين لى ان اسطوانات الحديد الضخمة التى يصل قطرها نحو ٢٥ سم قد غاصت فى الارض ، وان السقف اللعين قد دكهـــا فى الارض دكا ، واصر على هبوطه فى جبروت ، غير عابىء بحياتنا ولا بأرضنا ولا بمذلتنا .

مضى يتجه الى صدورنا فى الحاح .. لقد رفض السقف الحديد كانه جسم غريب فى الدار ، وخلت انه من قبيل التحدى قد زاد معدل هبوطه .

وتوالى نقص الفراغ المتاح لنا ، ولم يعد بامكانى الدخول الا منحنيا جدا لان سقف الابواب يقل كثيرا عن سقف الدار .

غدونا كلنا ندخل حجراتنا زاحفين على اربع ، كأننا نجتاز ابواب القبور، أو كأننا نهبط الى خنادق ، والانسب أن أقول اننا حيوانات زاحفة تعيش فى الجحور .

اصبحت حركتنا كلها داخل الدار يغلب عليها الانحناء ، ويزداد الانحناء كل يوم انحنـــاء ، نهبط كلما ضغط السقف وهبط .. ننطوى ونلتوى .. كأن دارنا هى بطن امنا ، ونحن قد عدنا اجنة لا نتنفس الا بقدر ولا نتحرك الا بقدر .. فمتى يحين يومنا فنرى النور ككل الناس .. ولماذا نقضى كل هذه الفترة فى بطن امنا لقد نما عودنا ، وطالت قامتنا ، ونضج وعينا .. فمتى نخرج من هذا القمقم الى الحياة ؟

كتبت الى الصحف من جديد واعدت الكتابة لانى اعتقدت انها يمكن ان تعبر عن مصيبتى بشكل او بآخر .

وفى يوم ارسلت احدى الصحف مصـــورا ومحررا .. سألنى واجبته ، وصورنى المصور وانا انحنى ، وصور اولادى وهم ينحنون. صورنا ونحن نصعد درجات الســلم الى دارنا الجميلة المطلة على النيل ، ثم ننحنى واحدا فى اثر واحد لندخل كالفئران ، او كأننا مجموعة من السائحين فى زيارة لمقبرة ملك فرعونى شهير .

حدثنى المندوب عن الروبرتاج الذى سيهز ويؤثر ويشد .. سنضع

هنا صورتك وهنا صورة المدام .. اما هنا فعنوان بارز ، وهنـــا سهم يشير الى المنزل ، وهو فى نصف حجمه ، أما المانشيت فسيكون « الانحناء ظاهرة القرن العشرين » ، أو « الدخول على الركبتين احدث طريقة لعلاج الشيخوخة » ، وما رايك ان يكون .. « اغيثونا.. المنزل يغوص .. » .

ومضت الايام ولم ينشر اى شىء .. وعاتبت نفسى وعجبت لامرى لماذا افتح صدرى للصحافة .. الكى تنشر ؟ تنشر ماذا ؟ ، وهل الناس بحاجة لان يعرفوا حكايتى ؟ ان حكايتى بلغت القاصى والدانى ويعرفها كبار المسئولين ، والادعاء بعدم معرفتها مصيبة كبرى .. كبرى . كبرى .

زرت بيوتا كثيرة ، كل السقوف فى مكانها مرفوعة ، والاولاد تقفز وتلعب . تصعد وتهبط كما تشاء ، الا نحن ، فنحن من دون الخلق اجمعين تعساء الحظ .

سقفنا يوالى الضغط والهبوط .

رأينا الناس تصعد الى اللمبات المتدلية بالكرسى او المنضـدة . ورأينا آخرين يضعون الكرسى فوق الكرسى ، او يستخدمون السلم ليسحبوا كتـابا من أعلى المكتبة ، وآخرون يصعدون على الكرسى ليعلقوا اللوحات .. لكنا ارتحنا من كل هذا .. شكرا لك ايهـا السقف .

لم نعد نزور احدا ولا نتيح لأحد فرصة زيارتنا ، ولكننا ــ بالرغم منا ــ اصبحنا عرضة لهواة الفرجة الذين يفدون علينا لمشاهدة دارنا العجيبة .

حياة مخنوقة وقصيرة وقعيدة .. لا أجلس ككل البشر مرفوع الراس ، وانما « اتقرفص » وانطوى كالبردان واقبع فى احـد الاركان ، كأنى اتقى المطر ، ولكنى معظم الوقت نائم مهدد ، لا افكر الا فى السقف .

لاح لى خاطر وانا ممدد .. الا يكون ما حاق بنا غضبا ربانيا لان زوجتى وأولادى لا يصلون ؟

هم حقا طيبون وعلى خلق رفيع ، فانا احاسبهم على الصغيرة قبل الـكبيرة حتى لا يصيبوا احـــدا بسوء .. ولكنهم لا يؤدون فرض الله .. فربما كان منه عقابا ، ومضيت فى اثر هذا الخاطر ، فتساءلت : ولكن غيرهم كثيرين لا يصلون ، فلماذا لم يعاقبهم الله ؟.. واجبت نفسى على قدر علمى وايمانى ، ربما يعاقب الله الجميع فى شخصنا ، وليس من المعقول ان يعاقب الجميع .. انه لطيف غفور رحيم .

اذن ليصلى الاولاد وتصلى ايضا ام مجدى .. فربما يرفع الله مقته وغضبه عنا ..

رأيت مرة فيما يرى النائم اننا كنا ننام على الارض بعضنا الى جوار بعض والسقف من فوقنا والريح الباردة فى الشتاء «تقرص» جلودنا بعنف .. واحتضن كل منا الآخر طلبا للدفء .. وارعدت السماء وانهمر المطر .. وغرق السقف .. وذاب .

نزلت قطراته فى افواهنا .. ملحا ملحا .. كان السقف من الملح . وامتلأنا مرارة واصبحنا مرارة .

أمرتهم جميعا بالصلاة ، فاستجابوا كأنهم كانوا ينتظرون كلمتى . وايقنت ، باستجابتهم انهم مثلى قلقون .. يبحثون عن الحل .

تأكدت اننى لا افكر وحدى فى دارى وانما الاولاد ايضا حتى نوسة الشقية ، اصابها ما اصابنا من الكآبة وغلب عليها ما غلب علينا من الخمود ، وهى الطفولة والصبا والانطلاق .

غدت تنام كثيرا ، ثم تشرب الماء وتبول وتنام وتبول .. اصبحنا نصلى جميعا فى الحديقة لان السقف لا يسمح لنا بالصلاة ونحن وقوف . وفضلت انا شخصيا الصلاة فى المسجد ، لاستمتع بقرب الله ولاستمتع بالنظر الى السقف البعيد ، والقبة المرتفعة ارتفـاع السماء .. واتنهد بعمق .. السقف بعيد . ما اجمله .. وما اروع ان نكون بلا سقف ولا يكون ثمة غطاء الا السماء ، ولا من وجه الا وجه الله .

واعود من المسجد لأتكور واتجمع واتداخل وانثنى وانحنى وانفذ من الباب كأنى اختبىء فى حظيرة دواجن .

وانبطح على الارض لاتناول طعامى او انام ، وانا ارنو للسقف كانى ارجوه ان يمهلنى حتى آكل او انام قليلا ..

نلوذ بالصمت فلا حديث هنالك بيننا .. وماذا يمكن ان تقول زوجتى لى ؟ هل تحدثنى عن الثوب الجديد ؟ هل احدثها عن الترقية التى نلتها او العلاوة التى زاد بها راتبى ؟ .. وهل احدثها بشأن مباراة الكرة او عن راى الـكاتب الفلانى ، ام تحدثنى هى عن جودة التمثيلية التى يجب ان تتابعها اليوم فى التليفزيون لانها توقفت بالامس عنـد مشهد مثير ..

وماذا يقول الاولاد ؟

اذا جاء وقت الطعام واكلنا كأننا سكارى او كأننا نأكل مضيعة للوقت ، او كأننا احوج الى النوم بعد سهر طويل ، نلوك الطعام فى افواهنا بالحركة البطيئة كالماشية التى تجتر طعامها فى الظل .

واذا جاء موعد النوم .. فكيف يمس منا العيون ولحظات الامن القلقة تحترق لحظة بعد لحظة ، من يدرينا ، فقد يتخلى السقف عن انتظامه ويسقط فوقنا ، يسحقنا ويهشم عظامنا بلا رحمة ؛ وحب الحياة غريزة فينا .

اخليت الدار كلها تقريبا من الاثاث ، ووضعت اغلبه فى الكوخ والباقى تركته فى الحديقة ، وارتمينا جميعا الى جواره نشرب من النهر ونأكل علب الاغذية المحفوظة ، وفى الليل نتسلل للنوم داخل الدار المهجورة التى اصبحت ربع دار .

ترسب الحزن وتراكم ، ثم تخمر وتعتق .. فصار طعما لكل طعم ومذاقا لكل مذاق .

اصبح الصباح فى احد الايام فاذا اخى الذى يعمل استاذا للهندسة فى جامعة اجنبية قد وصل .. ووقف ينادى حين لم يجد بابا يدقه ..

راعه ما راى ، وسمع القصـــة ، فقام من فوره بدراسة الارض والجدران المتبقية والسقف الجاثم ، وعلم كل صغيرة وكبيرة عن الهبوط والضغط ، فحزن اشد الحزن على ما آل اليه حالنا ونحن آخر فرع فى شجرة العائلة العريقة .

وشرد فترة وبدا عليه السهوم ثم قال : ما زال هناك حل .

فرحت لانى اعرف انه يفهم اكثر من اخواننا مهندسى مجلس المدينة ... قلت له : اوضح .

قال :الحل هو هدم السقف واعادة بناء البيت .

دهشت لان هذه الفكرة لم تخطر ببال احد .

.. بت الليل امنى النفس بقرب انقشاع الغمة ، وفى الصباح اتفقت مع أكبر مقاولى الهدم المعروفين بامكانياتهم وخبرتهم .

لقد آن الاوان كى نعيش كما ينبغى ، سيتم الهدم .. وبعد أسبوعين نبدأ فى بناء البيت الجديد .

وصل فريق الهدم بآلاته الخفيفة والثقيلة .. الكهربائية والاوتوماتيكية ، وكذلك العمال ، وبدا الدق على الفور فى عدة مواضع .

لم تصلح الفئوس وتطايرت اكفها الحديدية ، استخدموا آلات الحفر الصغيرة ثم الكهرباء ، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح .

لم يتأثر السقف ولم يهتم ، لم تحدث فيه ندبة ، وكأنهم كانوا يستخدمون الابر فى هدم كوبرى ضخم .

وبعد عدة محاولات وتجارب ، بعد تخمينات وظنون توقف العمل.. واعلن المهندس المشرف على الهدم لصالح المقاول أن هذا السقف من المستحيل هدمه ، وهذه الجدران من الصعب تكسيرها .

وسألت : والحل !

قال : الانتظار .

قلت : الى متى ؟

قال : الى أن يكمل نزوله .. السقف مستمر فى الهبوط ، ولم يبق له غير متر واحد .. فأصبر .. وبعد أن يهبط تماما يصبح بمثابة ارضية قوية تستطيع أن تبنى فوقها وانت مطمئن .

قلت : وأين أعيش انا واولادى ؟

قال : فى الحديقة . فى الشارع . فى المسجد . عند الجيران .. المهم انها هانت .. أصبر ولا داعى لان تضيع مالك وصحتك ووقتك فى هدم السقف .. دعه وسيأتى يوم يختفى فيه .. افضل ما فى المشكلة انك تعرف متى ينتهى .

قلت : نعم اعرف .

وسلمت امرى لله .. فات الكثير ويبقى القليل .. شهور معدودة .

الصبر من عندك يارب .

ولو ان حياتى كلها صبر فى صبر .. ولكن الصبر مطلوب منا مرة اخرى .

نصبر .. وعندما ينتهى الصبر ولم نبلغ أمانينا .

نبدأ فى الغد من جديد . .صبر وصبر .. وصبر .

كل ما لنا الآن فى الحديقة والكوخ ، كل وقتنا هناك .. كل نومنا هناك .. لم يعد لنا فى البيت قشة .. تركناها للعناكب تفرش فيها الخيمات .. تركناها للخفافيش تمرح وتختبىء من فضول النور .

لم يعد يربطنا بالحياة غير الامل فى ان ينتهى الهبوط ، ان ينزاح الهم .. ان يكتمل هبوط الجدران لنستطيع أن نبنى دارا ما دمنا لا نستطيع ان نحسم المسألة ونهدم السقف .

مضت الايام وانا اتابع السقف دون ان آكل أو اغفل ، فهو مصيرى وحياتى وحياة اولادى .

لم اكن بالطبع استطيع الدخول ومراقبة السقف من الداخل ، لكنى كنت ارقبه من الخارج .. أحضرت شريحة من الخشب طولها نحو متر وزرعتها فى الارض بموازاة الجدران .. سجلت عليها نفس العلامات المتدرجة ، وفى كل صباح اقارن بواسطة مسطرة ، مستوى السقف بمستوى العلامات المرقمة .

ما زال أمامنا نحو خمسة وثلاثون سنتيمترا .. أى نحو سبعين يوما .

وحتى لو اقمنا هذه المدة فى فندق .. فلا بأس وبعدها يبدأ البناء .

اعددت التصميمات وراجعتها عشرات المرات .. جميلة .. رائعة ودقيقة وجديدة .

اتفقت مع المقاول .. ابدى اخى استعداده لمعاونتى فى التكاليف ..

وها نحن فى انتظار السقف العنيد ليصل بسلامة الله الى الارض - وينتهى اجله ليبدا عهد جديد وبناء جديد وتعود انفاس الحياة لتتردد فى الصدور .

حلمت ليلة انى انام فى ظل شجرة ضخمة ، وسماؤها من الاوراق الخضراء لا من كمر الحديد ، تروح وتجيء بينها دوائر الضوء ، اما ما يجف من الاوراق فتزوره الريح .. وصحوت ، كان الكذب يدس فى صدرى السيف .. وكان الوهم فى صورة حلم .

وفى احد الايام لاحظت ان علامة اليوم هى علامة الامس فدهشت، هذا لم يحدث مطلقا منذ بدا السقف ضغطه على الجدران وهبوطه.. راجعت المسطرة والعلامات عدة مرات والنتيجة واحدة .

السقف لم يهبط .. بل ولم يهبط فى اليوم الثانى .. غريبة .. ولم يهبط فى اليوم الثالث والرابع والايام التالية .. قرعت راسى فى السقف من الغيظ والغضب .

بعد كل هذا الصبر ..

فان « سعادة البك » السقف – لن يصل الى الارض فى موعده المقرر !! . لن ينزاح عن كاهلنا عبؤه كما اتفقنا .. لقد اخلف وعده .. لقد آثر البقاء معلقا على ان يحقق لنا رغبة . ما زال هناك ثلاثون سنتيمترا او اقل ، ماذا افعل بها .. هل ابنى بيتا فوق الفراغ ، معلقا فى الهواء ؟ . ومن الذى سيضمن لى ان السقف سيبقى ؟

ما هذا الذى يحدث بالضبط فى دارى .. دار العجائب .. صرخت مما بى .. وسمع الناس بأمرى وامرها .. وجاء الكثيرون ليشاهدوها .. فحصوا ودرسوا وذهبوا .. ذهبوا بعيدا عنى .. حتى اخى العزيز ارتأى ان يعود الى جامعته افضل من ان يموت هنا باسم الانتظار .. والوعود .. والآمال التى لا تنتهى ، والثمار التى لا تجيء .

نصحو كل يوم لنستقبل الامس ، والشمس حين تشرق علينا فانما تتجه بنا لا ليوم جديد ، ولكنها تحملنا معها فى رحلة نزور

ما فات ، ولنعيش مرة اخرى لحظات سابقة وذكريات ميتة . ولنمنى امانى المرضى ونهفو لآمال الكسالى .

***

الشمس تميل الى المغيب ، وامامى تصطف جثث الايام المقبلة . احترق بقلبى شيء ما .. ربما حلاوة الحياة .. ربما حب الحياة .

عربد فى رئتى الرماد المتفحم . نفث فى حنايا صدرى ظلمة . ظلمة . ظلمات .

ضاعت انفاسى وسط الغبار المسموم ، كما تذوب قطرات المياه فى شلال اللهيب .

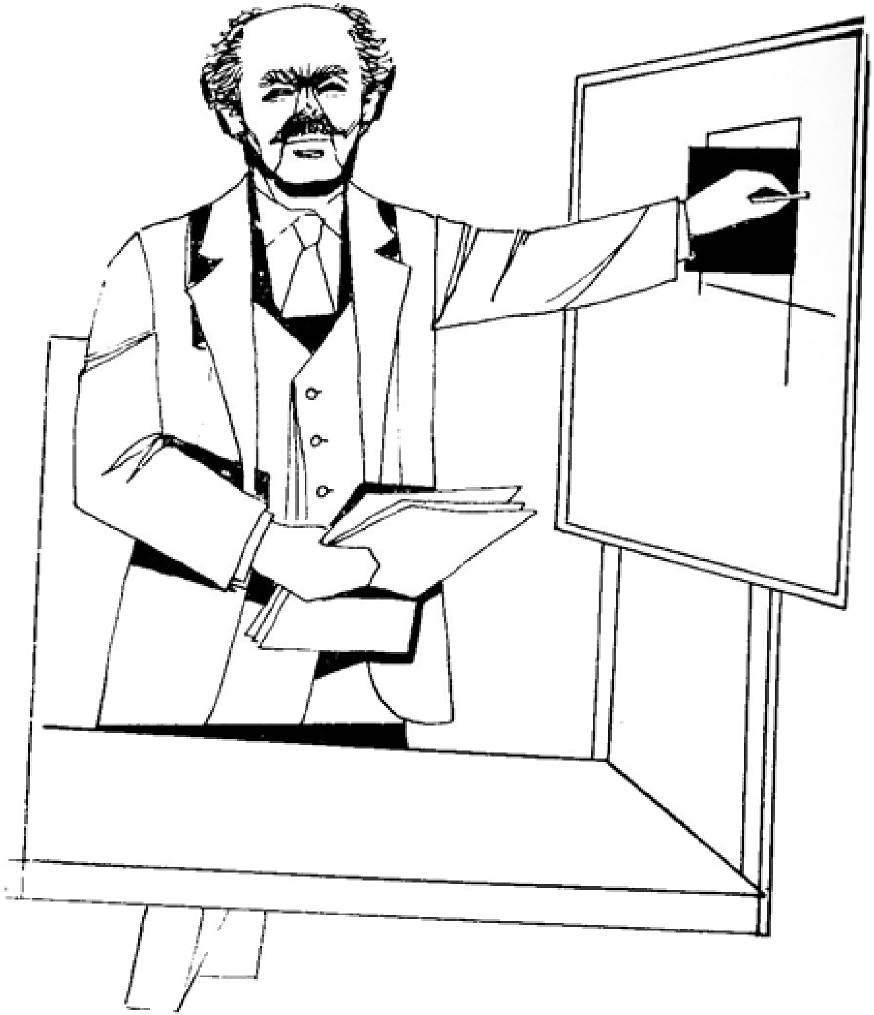
كدت اختنق .. اختنق .. اطل من عينى دمع عنيد ، ادركت حجم المهانة ، فبصقت على الاحلام الهشة ، وصرخت ..

وددت لو تهدم صرختى اركان الدنيا .. فتكون على وعلى اعدائى، لكنى كعهدى دائما عدت فكتمت الصرخة ، ووقعت على قش المصلى المطل على النيل .

حدقت فى المياه الداكنة .. قدم الى مجدى وجمال .. اسعد اذ يكونا بجوارى . كنا قد اوشكنا ان نعيد البناء كما نحب ونشتهى، ولكن السقف الضاغط ، الرابض فوق صدورنا ، القابض على ارواحنا ، توقف عن الهبوط ورفض مبارحة مكانه الاثير لديه فوقنا .

تنهدت وحدقت فى مياه النيل كأنى اسألها عن حظى .. الفيت النهر تجمد وتحجرت امواجه ، وما عاد ماؤه يصلح للشراب ولا للصيد ولا للابحار .

الوادى المقدس



الوادى المقدس

شد المدرس العجوز عوده ، ونظر الينا طويلا قبل ان يبدأ درس اليوم فى الجغرافيا . بدت سحب القلق واضحة على محياه ، ومضى يرنو للنوافذ المطلة على الصحراء خلف ظهورنا وكأنه يسأل الفضاء عما ينوى قوله .

لم الحيرة ؟ .. ونحن نعرف ان درس اليوم فى الجغرافيـــــا وبالتحديد عن نهر النيل هل الدهشان افندى فى حرج لانه كان يتمنى أن يراه يوما مثلما نتمنى نحن ذلك ؟ ام انه كان يفكر فى الرحيل من صحرائنا فى سيناء كما فعل غيره ، وذهبوا الى نهر النيل .. الى مصر الخضرة والعمارات الشاهقة والميادين الفسيحة والسيارات الفارهة والاطفال المترفين الذين نراهم فى البطاقات السياحية .

من المؤكد ان الدهشان رأى النيل يوما ، فلم الحيرة ولم هذا الصمت الذى ران عليه وهو برغم اعوامه الستين قوى الذاكرة ، فياض المعلومات ، منطلق اللسان .. سواء فى دروس اللغـــة العربية او التاريخ او الجغرافيا .

مضيت اتساءل حتى بلع ريقه وقال :

ــ لستم صغارا .. صحيح ان معظمكم فى نحو الثانية عشرة ومنكم من زاد عليها ، الا انى افكر فيكم دائما على انكم رجال ، وتدركون الامور انضج مما كنا ندركها ونحن فى مثل اعماركم .

هب زميلى فى المقعد ليعلق كعادته وكأنه يثبت دائما انه موجود .

ــ ابى يقول غير ذلك .

ــ دعنى اكمل حديثى يا صالح .

ــ اتفضل يا استاذ .

ــ انتم كبار وتستطيعون ان تفهموا ما اريد قوله .

— نحن نفهم جيدا يا أستاذ .

كان بيننا رجال كبار ، فاتهم قطار التعليم فى حينه ، فجاءوا الى المدرسة ينصتون فى اهتمام لشروح الدهشان افندى ، اعجابا بطريقته المبسطة التى يعرض بها العلم كقصة أو مغامرة .

قال الكبار : ونحن نفهم أيضا يا دهشان افندى .

— اعلم يا أخوانى ولكنى أريد ان أسأل عن الذين يفكرون دوما فى الرحيل .

— انهم يذهبون الى الوادى .. الى مصر .

— لماذا ؟

— للبحث عن العمل .. للعيش وسط العمران .. للبحث عن الجديد .

— بل هربا من الصحراء .

— نعم يا دهشان أفندى .. نعم .

— وانتم تعلمون انى طالبت المسئولين بأن يقوموا بتشجير المنطقة ولو على دفعات . حتى نشيع فيها ظلا وبهجة فلم يحفلوا .. لانهم مشغولون بالأهم ، نريدهم أن يخلعوا عن سيناء صفات الجدب والجفاف .

— ولكن ما دخلنا نحن ؟

— أود أن نعتمد على انفسنا .. وليكن درس اليوم عن كيفية غرس الاشجار .

سأل جارى المشاكس : وهل هذا مقرر علينا بالمنهج ؟

— لا يا صالح .

— وهل سنمتحن فيه آخر العام ؟

— لا يا صالح ؟

— اذن لماذا نتعلمه ؟ وهل نحن نستطيع مذاكرة ما لدينا حتى تضيف الينا دروسا جديدة .

— ردك هذا قريب الشبه بما قاله لى المسئولون .

وفكر أحد التلاميذ أن يلهى المدرس عن الجغرافيا فقال له :

— استمر يا أستاذ .. حدثنا عن غرس الاشجار .

فقال الدهشان افندى :

— غرس الاشجار يا اخوانى هام للغاية بالنسبة لمنطقة صحراوية كمنطقتنا ، لانه هو الخطوة الاولى لنقلها الى عالم الاستقرار ثم عالم العمران والتقدم .

ومضى يشرح أنواع الاشجار وكيفية غرسها ، ورعايتها وهندستها ومناظرها الخلابة ، ونحن بما يقول فى سعادة واعجاب صادقين .. وقد الح على احساس بأن اخرج من المدرسة لأزرع شجرة او عدة اشجار أمام دارنا الكبيرة .. تين أو زيتون أو اكاسيا وتخيلت دارنا والاشجار تحيط بها كشعر البنت يحتضن وجهها .

اخذت ارنو الى المدرس وهو ماض بحماس يفسر لنا اهمية الاشجار فى المنطقة ، وعلينا دائما أن نفعل ما لا يفعله أولو الامر ، لان مستقبل الارض هو مستقبلنا ومصيرها مصيرنا .. يجب ان نصنع هناءنا بأيدينا .

استمتعت بالحديث الذى طال وتشعب ، وذابت نفسى معه ، وتألق الاستاذ وانتشى حتى انسجمت ملامحه ، وانسحبت منها قتامة الاسى وكآبة اليأس وخاصة حين لمس التجاوب والتعاطف منا جميعا .. حتى الكبار الذين لا يطيقون الجلوس طويلا ، تسمروا فى المقاعد مشدودين الى عينيه ولسانه ، يتابعون افكاره فى شوق . انشرح صدرى لحديثه كما انشرح يوم كان يحدثنا عن ارض سيناء المقدسة . تلك الارض التى تحدث فيها الله لاول مرة وآخر مرة مع بشر هو النبى موسى .. تلك الارض التى مرت عليها اقدام عيسى وامه البتول .

خاض يومها الاستاذ فى تاريخ بلادنا العزيزة وامجادها فى كافة العصور ، ومكانها وأهميتها العالمية ، وخضنا معه دروبا كنا نجهلها ، لكنها حببت الى نفوسنا التاريخ وجذبتنا الى الجغرافيا وقربتنا من الدهشان افندى ، فأحببنا من أجله دروس النحو والصرف .

لم نعد نغضب لسخطه ، كلما اطل فى كراساتنا وافزعته خطوطنا السيئة التى تشبه آثار جمال هائجة .

بعد ان انتهى من حديثه الطريف عن الاشجار قال : هذا ما عندى فما رايكم ؟

ران الصمت على القاعة كأننا جميعا فقدنا النطق، نبحلق فيه كتماثيل الشمع .. نهض الكبار وتقدموا منه ، فنهضنا وتبعناهم وسلموا عليه قائلين :

ـ نعم الراى .. نحن معك .

اسرعت الى الدار وزرعت شجرة واحطتها بصفيحة حديدية ذات شكل اسطوانى مستطيل ، لتمنع عنها هجوم الرمال الزاحفة .

غدوت ارنو للصحراء بفكر مختلف ، ادقق فيما ارى واتساءل فى قرف ، ما هذا المنظر .. ما هذا القفر ؟ عجبت لنفسى ، اما كنت امرح واجرى لاهيا راضيا .. الآن بدت لى الصحراء قاحلة ، ليس فيها غير الواح الصبار تحرس الخلاء وتتأمل العدم .. الشفاه الظمأى تبتلع الرمال التى تجتاح كل شيء وتنفذ الى العيون .. رمال صفراء ممتدة الى نهاية العالم الفارق فى نزيف الشمس المحرقة والليل الاسود ، والصمت الاسن يتعفن الى ان يهزه نعيب الريح الضالة .

زارنى صالح فأريته الشجرة ، لكنه هز كتفيه واطلعنى هو على بطاقة معايدة ، ارسلها عمه لابيه منذ شهور ووصلته اليوم ، ميدان فسيح حوله الاشجار الباسقة وخلفها العمارات الشاهقة ، والنيل يتدفق بالحياة ، والسيارات تجرى على ضفتيه فى موكب رائع الالوان .. الوان بهيجة ليس فيها لون أصفر .. الاصفر الاجرب مخصص لنا وحدنا .

قلت لصالح : لا بأس فمن هنا مر عيسى .. ورغم انى مسلم الا انى ارتاح اذا تلقت مسامعى اسم عيسى ، ففي الاسم قداسة وطهارة ونقاء وتضحية .. ولست ادرى لماذا أتخيله شبيها بالدهشان افندى .. بلدى اجمل من كل البلدان ..

فى المساء سمعت ابى يقول لضيفه :

ـ ابلغونا أن الجيش المصرى قادم نتيجة الصراع السياسي الاخير ، وستغدو المنطقة ملعبا حربيا مرة اخرى ، ستصبح ارضا للمعارك .. فراشا للحديد والنار والشظايا والدم والجثث والذئاب والالغام ..

ستظل ارضنا مرتعا للموت، تعلق دائما شواهد القبور ، ومنبعا للظمأ، وملاذا للضياع الى ان تقوم الساعة .. لا أمل فى ان يبلغنا الامن يوما .. قال الضيف :

ـ والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الآمين .

افقنا فى الصباح على جنازير الدبابات المصرية تقتحم التلال باصواتها الغضبى ، تعلن زحف المصريين عبر سيناء الى حدودنا مع العدو الابدى .

اخذت اتفرج وأنا غارق فى ذرات الرمال التى غطت قريتنا كلها .. ومضيت كالجميع الوح للجنود وهم يلوحون لنا فى غير احتفال ، كأنهم يلوحون لأشجار الصبار .

استمرت الضجة ليلا ونهارا ولكن الجنود كانوا يتساقطون أشلاء، والدبابات التى كانت ترعد اصبحت تتقافز شظايا تفرش الصحراء بنقوش قاتمة من الحديد والدم .

وتراجع الزاحفون .. منهم من يسرع بالعودة ومنهم من يسقط امام الديار بلهث ، نقدم له الماء فلا يشرب ولكنه يبصق ، تسأله فلا يرد ولكنه يكاد يشتمك بنظراته المكلومة ، ورحت ارنو للرمال التى اصبحت رمادا بعد ان اهال العار عليها كآبته السوداء .

لم ننم فى هذه الايام القليلة ونحن فى غاية الدهشة .. وأبى يضرب كفا بكف . سمع أحد الجنود يقول فى مرارة : لقد انتهى كل شيء .. فقدنا سيناء والاسرائيليون قادمون .

صرخ الدهشان افندى : أيها المجانين .. سيناء لا نفقدها ابدا .. لعنة الله على الحرب .. سيناء لا تضيع .. انها كتف مصر .. وذراعها الايمن .. انظروا الى الخريطة اقراوا التاريخ .. اقراوا القرآن .

أسرع الى داره وعاد يحمل لوحة كبيرة عليها خريطة ملونة لمصر وقد تجلت سيناء فيها كشمس مشرقة .

قال ابى : لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين .

ورد الدهشان : ترابها ليس ترابا انه ذهب .. اختلط برملها الدم المقدس .. دم الانبياء وآثارهم ودماء المصريين وآثارهم .. تأملوا الخريطة .

وعرض الضباط على أبى ان يرحل الى الدلتا فرفض ، ولكنه قبل بعد الحاح عمى وأصدقائه ، فمضينا الى بلبيس .. أما الدهشان .. فقد ابى بشدة أن ينتزع منها .

اكملت تعليمى حتى حصلت على دبلوم المعلمين وعينت مدرسا .. وعشنا فى ثلاجة الهزيمة عدة سنوات ، رابضين كالكلاب أمام كهف الزمن العقيم ، وأمامنا تمتد دروب المحنة بلا نهاية .. تعملقت حولنا خيوط العنكبوت .

وجاء الامر بالانقضاض وكنت فى اول عهدى بالجندية فزحفت مع الجيوش المصرية باصرار الثائر وعزم المنتقم ، تسابق روحى قدمى .

هاأنذا قادم اليك . دمى يدفعنى نحوك .. وكل شىء ينادينى يا سيناء . حياتى بعيدا عنك موت ، وموتى بعيدا عنك جبن وانتحار .

عبرت القناة وتلمست رمال سيناء بدموعى ، فأدركت انها بالفعل ذهب ولكن قريتى الصغيرة التى تقع بالقرب من العريش لم أدخلها الا اليوم بعد اثنى عشر عاما كاملة .

مضيت من فورى الى دارنا فلم الق الا أطلالا ، لكنى وجدت فى استقبالى شجرتى العزيزة ، شجرة عمرها اثنى عشر عاما بعمر غربتى .. نمت فى غيبتى .

كان منظرها البديع هو الذى اثارنى حقا وأبكانى .. لقد نمت الشجرة فى اصرار ، برغم الوعاء الحديدى .

الشجرة خصرها نحيل جدا لانه محصور بالصفيحة الحديدية ، أما ما فوقها فعريض يتفرع فى كل اتجاه ، له اذرع طويلة يرحب بنا .. بدت الشجرة كالكأس .

اخيرا وجدنا الدهشان افندى وقد نحل عوده ، وشاب شعره ولكن بهجته لقدومنا أعادت اليه ما فقده خلال اثنى عشر عاما .

قال : الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين .

صدق الله العظيم

ــ عدتم والعود أحمد .

ــ نحمد الله .. هل تعلم بأنى اصبحت مدرسا واود ان نبدأ من الآن ولو فى الخلاء .

ــ نعم سنبدأ فى الخلاء . سنبدأ من حيث انتهينا .

ــ سنعلم الاولاد تاريخ البلاد .

ــ سنعلمهم اولا كيف يغرسون الاشجار ، لم تعد سيناء منطقة نزال ولهيب ، تنزله بنا الشمس من ناحية والحرب من ناحية أخرى، بل ستكون أمنا وعبادة وظلا حنونا . فهيا نغرس الاشجار .

المظاهرة



المظاهرة

كان الصمت يستولى على الحجرة تماما ، والضـــابط يتصفح باهتمام مجلة مملوءة بالصور ، وقدماه على المكتب .. فجـأة صرخ التليفون .. رفع الضابط السماعة . قال بهدوء العظماء :

ــ نعم .

انتفض حتى كاد يتشقلب ووقف معتدلا : اهلا يا فندم .

عملت يده بنشاط فى ترتيب هندامه وشد حزامه ، وكل حواسه تنتبه لما يســـمعه ، وبين الحين والحين ينطق بكلمة او كلمات مستحيل .. هنا فى قصر النيل .. لكن يا فندم القرار صريح .. يمنع ال .. اوامر سعادتك .. القوة الموجودة عندى بالقسم لا تكفى .. آه لو سمحت .. نعم .. حاضر .. لا تهتم سيادتك .. سألحق بها فورا .. مع السلامة .

انتظر الى ان اغلق محدثه السـماعة ، فوضع السماعة وشرد .. ضرب جرسا ، ولم ينتظر الاجابة .. زعق .

ــ يا صول عبد العاطى .

جاء على الفور الصول عبد العاطى ودك الارض بحذائه ، انتصب محييا مأمور القسم : تمام يا فندم .

ــ اجمع لى القوة واستدعى حضرات الضـــباط ، ونبه على المركبات كى تستعد ، ابلغ الكل بالحضور حتى من قام بأجازة .

دق عبد العاطى الارض بحذائه مرة اخرى وحيا الضابط : فى الحال يا فندم .

دار على عقبيه ومضى فى حماس .

تقدم الضابط من الخريطة المعلقة على الجدار فى مواجهـــة مكتبه . سقطت نظراته مباشرة فوق الكوبرى . بداه من أوله . سعد غلول يقف شاهرا يده كالسيف .

اشار بعصاته الى المواقع التى ستمر بها المظاهرة .. اين تراه اضيق ممر يتعين عليه أن يحتله ليسد عليها الطريق .

فتح الباب واندفع الضباط :

ـ ماذا حدث ؟

ـ مظاهرة .

فى صوت واحد ردددوا وراءه .

ـ مظاهرة .

ـ مظاهرة .. كنا قد ارتحنا من هذه الامور .

ـ ربما لا يكونوا طلبة .

ـ طلبة او غير طلبة ، المهم ان هناك مظاهرة ، اى عمل ضد القانون .

ـ واين هى الآن ؟

ـ فوق كوبرى قصر النيل ومتجهة الى ميدان التحرير .

ـ وبعد الميدان .

ـ لا نعرف .

ـ ما هويتها .. ما هدفها ؟

ـ لا أحد يعرف .. البلاغ لم يفدنا بغير ذلك .

ـ اما أن تتجه يمينا الى قصر العينى فمجلس الشعب .

ـ أو تتجه الى الامام حيث باب اللوق فقصر عابدين .

ـ أو تتجه يسارا الى شارع رمسيس حتى قصر القبة .

ـ على اى حال .. علينا الآن ان نذهب فورا الى ميدان التحرير ونتصرف حسب الظروف .

ـ احذركم من العنف .

ـ هم الذين يبدأون .

ـ لا داعى للرد عليهم حتى لا نتورط اكثر .. تكفى الدروع والعصى .

ـ وماذا تفيد ؟

ـ انتظروا الاوامر .

ـ رايى انه لابد من المسيلة للدموع .

ـ موافق على سبيل الاحتياط .

ـ اتصل سيادتك بالمطافىء لتلحق بنا .

ـ من المؤكد ان سيادة اللواء اتصل بهم .. فضلا عن انه ليس من سلطتنا اصدار الامر اليهم فى مثل هذه الشئون .

ـ اذن لابد من مساندة قوات الامن المركزى ، فنحن وحدنا سنسحق .

ـ وعد سيادة اللواء بارسالهم فورا .. لكنها منطقتكم ومسئولة منكم .. فهم الآن يمرون بأرضكم .

ـ تمام يا فندم .

ـ بعد دقيقتين على الاكثر ناخذ تمام امام القسم .

انطلقوا جميعا ، جنود ومباحث وضباط وسيارات لورى وجيب.. فى ميدان التحرير هبطوا ..

فى آلية تامة انتظموا صفوفا ، تحمل الدروع والعصى ، وفوق رءوسهم تصطك الخوزات النحاسية وترن .. على الاسفلت تدق الاحذية الثقيلة . وفى الفضاء تدوى الحناجر معلنة قوتها ومبدية شراستها ، وقدرتها على الردع : ها ... ها ... ها .

اندفع احد الضباط ومعه جهاز الاتصال ، وصعد فوق كوبرى المشاة الذى يلتف حول الميدان كدائرة النار .. راقب الكوبرى فى اهتمام وتحفز ، راعته اعداد ضخمة من الجماهير ، تهدر بأصوات لا يتبينها تعبر الكوبرى وتتقدم كالغول .. كحيوان اسطورى ظهر مرة اخرى فى نهاية الزمان .

تحدث فى الجهاز الى رئيس القوة .

ـ تمام يا فندم .. المظاهرة ضخمة جدا ، لا أرى لها نهاية .. عدد كبير محمول على الاكتاف .. ارى جنود الامن المركزى وهم يصطفون هنا امامى فى اول الميدان . يبدو ان الاوامر لم تصدر بعد لايقاف المظاهرة والقبض على زعمائها .. المسافة بين المتظاهرين وجنود الامن لا تزيد على خمسين مترا ، صمت الضابط ليستقبل رد المقدم رئيس القوة :

ـ ابق فى مكانك .. سننضم الى قوة الامن المركزى .. سنوقف المظاهرة باذن الله .

— اعتقد ان الشيوعيين وراء هذه المظاهرة .

— كيف عرفت ؟

— يحملون اعلاما حمراء .

— لابد انهم كذلك .. ومع ذلك لن نبدا العمل الا بعد معرفة هويتهم .

اشار المقدم الى ضابط وثلاثة جنود يرتدون الملابس المدنية :

— توجهوا فورا الى المظاهرة واندسوا وسط الجماهير .. حددوا نوع الهتافات واكثرها ترددا ثم انضموا الينا بسرعة عند اول الميدان .

استدار الى الضباط رؤساء القوة :

— كل القوة بالخطوة السريعة تتجه الى اول الميدان .

انتظر الجنود حتى تصدر لهم اوامر رؤساءهم المباشرين الضباط الصغار .. ثم بدأوا القفز فى اماكنهم .. اقدامهم تعلو وتنخفض ، الى ان صدر لهم الامر الثانى بالاتجاه الى الميدان .. فتقافزوا اليه ، يطلقون صيحات الرعب والتهديد : ها .. ها .. ها .

بلغوا المكان ووقفوا صفا واحدا متشابكى الايدى ليكونوا سورا حصينا من الاجساد والدروع والخوذات والنظرات الشذراء والعداء والتحفز .

بدت الاعلام الحمراء الضخمة .. الصيحات فى الميدان كله .. بدت المظاهرة خرافية فى حجمها .. زحف طويل عريض كثيف .. عنيف متحمس .. الزعماء المحمولون ملتهبون ، بعضهم مفتوح الصدر تماما والعرق يسيل .. حشد هائل من البشر ، لم تعرف بعد مطالبهم .

قال احد الضباط لزميله :

— كيف يجرا هؤلاء الشباب على ركوب هذه المظاهرة والخروج فيها ، القانون الذى صدر يمنع المظاهرات بشتى صورها ما زال يعمل بكفاءة عالية .

— شىء غريب حقا وحماس اسطورى سيؤدى باصحابه الى

التهلكة .. انه لجهل حقيقى وطيش اكيد .. الروح احق ان تصان والعمر اثمن من أن يهدر فى موقف كهذا .. الدم الغالى سيراق بكل بساطة وبدبشك البندقية ستتحطم الرءوس .

زعق المأمور فى الجميع .

— استعدوا .. تشابكوا جيدا ، ساقف على جانب الشارع ، ساشير اليكم بمجابهتهم .. انظروا الى يدى ، لانكم لن تسمعونى .. لا تدعوهم يمروا .. هذا افضل موقع لاحتجازهم ..

اسرع الضباط الى الطوار .. ووصلت الجموع الحاشدة .. استمع الضابط الى هتافها المجنون :

— الاهلى حديد .. الاهلى حديد ..

كادت الدهشة تصعقه ، حاول ان يستمع لهتاف آخر .

— وبطلكم مين ؟ .. الاهلى ، وفريقكم مين ؟ .. الاهلى .

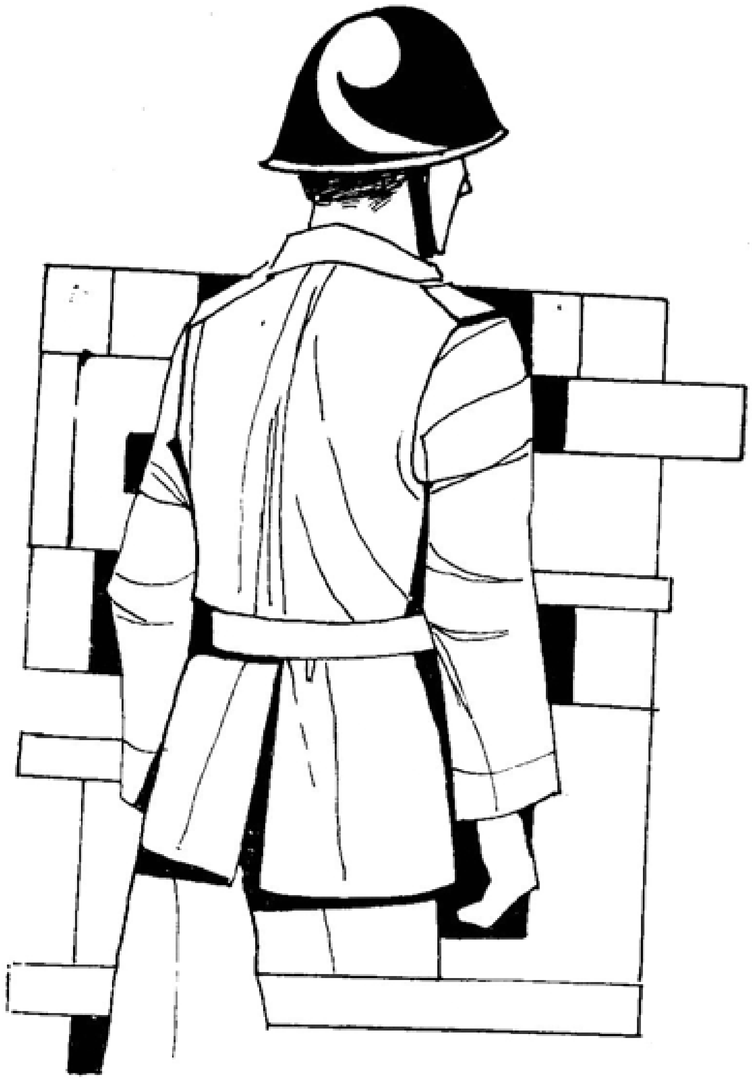
كاد الذهول يقضى عليه .. افاق من غيبوبة المفاجاة ، انتشى فرحا لان كل هذه الجموع تشجع فريق الاهلى ، لانه هو الآخر يشجع الاهلى .. رفع يده وهتف معهم .

رآه الجنود وهو يشير بيده .. انقضوا على الجموع الزاحفة يردونها فى عنف .

بدا انهم غير قادرين على الصد .. رفعوا الايدى بالعصى .. اختطفتها الجماهير الزاحفة الهادرة كالسيل .. تقدمت المظاهرة الهائجة بالفرح .. تلاشى الجنود ..

تمددت الجموع فى الميدان الكبير وانتشرت .. النساء والاطفال فى الشرفات يلوحن بحرارة .

الوجه والحائط



الوجه والحائط

لم يكن يفصلني عنه غير متر واحد . تطلعت اليه . حدقت فى الندوب التى نخرت المستطيل الحجرى المواجه لى مباشرة . واجهنى الحائط . دنا منى ، ثم دنا منى ودنا ، لمس انفى . ضغط عليه سواه بخدى . تبطط انفى . لمس الحائط خدى . عفرهما بالتراب. ضغط .. التقى بعظمتين . ضغط . فى مهل تراجع الى ان بلغ موضعه الاول .

زعق الضابط . انفرس فينا صراخه العالى . عدت ابحلق فى الجدار . تهزه القطارات التى تجرى فوقه . ترتطم العجلات الحديدية بالقضبان ، وتدق القضبان راسى . تدك اكتافى . زعق الضابط مرة اخرى . تدفق صوته الهادر من نافورة اقدامه ، مر خلال جسده المشدود . انكب على رءوسنا. زلزلها.. بعدئذتساقط الصوت فى سراديب الكيان المهتز . جرى مسرعا كالهارب داخل احسادنا ورقد .

ـ الكل ثابت . ارفع راسك . الذقن فى مستوى الكتف . العيون الى اقصى اتساعها مفتوحة .

هذه هى المرة المليون التى نسمع فيها هذه العبارات . كف الضابط عن الطرق .. جذب الحائط نحوه نظراتى المرتجفة . لم استطع طويلا تجاهل أسنان الالم التى تنهش الاصبع الايمن فى قدمى .. الحذاء ضيق وثقيل .

صرخ الحائط فى . انتبه الى . بحلق فى ودقق النظر . تأملنى مليا .. متين انا قوى ثابت فى مكانى كالطود . هانذا اقف امامك رغم القطارات .. لست مثلك متهاوى الاركان .

دق القطار المتجه الى المرج راسى .. تأملت الحجر المواجه لعينى..

خلف ظهرى تسرع السيارات المجنونة ، تتواصل بلا توقف .. لا تبقى الشارع المصلوب على الارض لحظة ، يفيق فيها من اغماءة السحق المتوالى .. تطحنه السيارات وتطحننى .

لحظة هدوء واحدة لا تتركها لى كى أفكر فى اى شىء ، او اتذكر اى شىء .. الابواق تتعالى وتتجمع كالدخان فى سحابة ، ثم تسقط مرة اخرى .. كتلة صوتية ثقيلة كألواح من الصفيح .

الاتربة تقذفها العجلات عن الارض ، وكلما حاولت ان تعود .. قذفتها العجلات ، فتحملها الرياح .. تحلق فوق راسى ، وتنهال على قفاى ، تتجه داخل اذنى ، تلتف حول الرقبة وداخل الحلة ، وتمضى الريح ، لكن الاتربة تتسرب الى ما تحت الجلد .

الارض تهتز تحت قدمى كأنى اقف على مطاط ، او بساط فوق بركة من الوحل ... بطرف عينى تجسست على الشرطى الذى يبعد عنى الى اليمين مسافة مترين .. مشدودا وجدته . محدقا فى الحائط ، فى السور العالى الممتد الى ما لا نهاية . بدا مهتما بالوقوف ، مهتما بالحائط .. وددت ان اناديه ، ولما يلتفت الى او يشير الى بأصبعه بما يفيد سماعى ، اقول له .. اقول له اى شىء .. ماذا اقول له ؟

سألته ونحن مكومون فى اللورى عن امه المريضة ، التى رفض الضابط التصريح له بالذهاب اليها .. لم يعد هناك ما يستوجب السؤال .

مللت . مللت وقفتى من ساعة الضحى ، خمس ساعات ، وجهى فى الحائط ، أدور فى داخلى .. اجوس خلالى .. لا اهتدى ، تضل خطواتى بحثا عنى.. أطفو مشتاقا للحياة .. أود ان اسمع،اسمع ولو بضع كلمات .. اتعطش الكلمة .

مرت بى سيدة ريفية ترتدى ثوبا أسود ، تطلعت الى وخلفتنى ، مشت الى زميلى ، الذى يبتعد عنى مترين سمعتها تسأله :

ـ انتم يا بنى مصلوبين كده ليه ؟

لم يرد عليها .. مضت وقد حملت سؤالها سؤالين . حدثت

نفسى .. لو كانت قد سألتنى انا ، بماذا كنت اجيبها ؟ .. تسليت فى البحث عن اجابة الى ان مللت ، وعاد الالم يتفجر من تحتى .. من اصبعى الصغير . وعاد هدير الضابط المتلاطم الكلمات يصفع اذنى ، ويدقنى فى مكانى .

السيارات المسرعة كأنها تحاول النجاة من خطر تلصقنى بالجدار، تضعنا جميعا امامه وهو يتفرج علينا ، فرحا بصحبتنا ، فكل الناس امامه يمرون لا يأبهون ، ونحن آلاف الجنود نقف أمامه بثبات . ندرس كل ذرة فيه ، ونحفظه من طول التحديق .. من يناولنى الآن سيجارة .

بطرف عينى احتوت نظراتى زميلى الشرطى الذى يبعد عن شمالى مسافة مترين .. مسعد .. الذى لا يكف دوما عن السخرية والضحك .. كائن عجيب .. كانت آخر حكاياته عن زوجته التى تورم جسدها فجأة .

قال مسعد : ولم اجد مفرا من حملها الى الطبيب الذى قال زوجتك تعانى من الاكتئاب . لم اتمالك نفسى من الضحك الى آخر العمر .. ومرت أيام لاحظت خلالها أن جسد زوجتى فعلا يتحول الى بالونة كبيرة ، بينما وجهها يضمر وينكمش .. ولكنى للأسف كلما رايتها ضحكت فيزداد جسدها تورما .

من بين قهقهته تبلغنا كلماته :

ـ زوجتى صريحة واضحة ، اعلنت عن نفسها بالورم ، والغريب انها برغم الاكتئاب والورم ما زالت تعيش ، فى حين اننى لو اكتأبت لمت فورا ، بل اننى لأموت قبل ان اكتئب .. لا اتخيل حالة الاكتئاب هذه فاما ان تعيش فى رأيى او تموت ، وما بينهما عذاب ... الآن فهمت السر فى ان اغلب الناس متورمون .

مسعد كائن عجيب حقا ، لا ينطق احدنا بكلمة الا وعلق عليها بما يضحكنا . وكم افسد الطوابير وازعج الضباط فيصرخون فيه ، ويخرجونه من الطابور ليلقى جزاءه ، فيقول ما يضحكهم ، ويضطرون لاعادته .

اما الآن فالمسكين يقف مكتوم الانفـــاس ، يوشك ان يموت من الغيظ ، لا يجد من يكلمه ، ولا يجد من يسخر منه .. الحائط يسد عليه طريق البسمة ، والضابط يمر علينا « بوشه الكشر » .

لمحنى مسعد . احس بنظراتى . اشار بابهامه جهة الخلف ، ايقنت انه يعنى زملاءنا الذين يقفون على الجانب الآخر من الشارع ، يطلون على المقـاهى ومحلات العصير والاثاث والملابس .. يتسلون بالنظر الى المارة .

اما نحن فحظنا فى كل مرة هذا الجدار ، ننتظر مسمرين ست او سبع ساعات ، الى ان يمر الضيف الكبير فى طريقه الى القاعة الكبرى ، فيلقى خطابه ويعود من نفس الطريق .. طريق يمتد ثلاثة كيلو مترات او يزيد ، نفرشه نحن الآلاف على ثلاثة صفوف .

صف أنا فيه ، وجهته هذا السور وفوقه السكك الحديدية ، وصف وجهه الى المحلات التجـــارية ، وثالث فى الوسط بين الرائح والغادى ، تتبادل فيه الوجوه ، شرطى وجهته الينا وشرطى وجهته هناك وهكذا .

كان ابى حين اخطىء وانا صغير ، يشفق على من الضرب بالعصا او بالحزام ، فيأمرنى بالوقوف ووجهى للحـــائط .. اقف ساكنا لا اهتز .. لا ادفع عنى الذباب الذى وكأنه يعرف حالتى ، ينكب على عينى وانفى يقلب فيها .

كنت احملق فى البياض المتهرىء ، اتخيله اشكالا .. ادفن نفسى فى الاشكال الناقصة . تتبخرمن ذهنى الدنيا ، تبتعد وتتـلاشى، الى ان يصفعنى صوت ابى ، فيلقينى على الارض بعيـــدا عن خيالاتى .

— قف معتدلا والا ...

تعودت من سنين أن ارنو للجدران . ان التصق بها . افصل حبة الرمل عن حبة الرمل .. تعلمت كيف ابحث فيها عن الاشكال ، واتتبع قوافل النمل المسافرة ، هذه النملة تمشى كما تشاء ، وهذه تحمل ما تشاء وهذه تدع ما تشاء .. تعلمت كيف احدث الجدران

احكى لها عنى .. لكن ذلك كله لم يكن يحول بينى وبين الدمع يتواثب فى عينى ، حتى وانا كبير .. وفى هذه السن ومعى الزوجة والاولاد .

كنت اقف ســاعة واحدة على الاكثر ، بعدها يشفق ابى على ، فيأمرنى بالاختفاء من امامه ، ولما كبرت اصبحت اقف نحو ست ساعات دون ذنب ، او ربما هناك ذنب .. الله اعلم ..

وجهى للحـائط ، على ان اطيع ولا افتح فمى بكلمة غير .. تمام يا فندم .

— بس .. بس .

بطرف عين نظرت الى مسعد ، اشرت اليه بيدى اشارة تساله :

— ماذا تريد ؟

ووجهه للحائط اجاب : حظى التعس يضعنى كل مرة بين حمارين ، لا ينطق الواحد منكما حرفا .. مجرد حرف يغيث اللهوف .. لست ادرى من اين جاءوا بكم ؟

— هس هس والا ...

— الا تحمل معك ما يفيدنا فى هذا الموقف العظيم .

— انت تعرفنى .

— خيبة .

حين ادخل دارى اجر اقدامى تقابلنى ابنتى :

— ماذا احضرت لى يا ابى ؟

امر من امامها دون اجابة وارتمى على السرير .. تدخل زوجتى .

— لم ترد على ابنتك .

— بماذا ارد عليهـــا ؟ .. هل ترين ان لى راسا يمكن ان يتذكر شيئا ؟ اذهبى فهات الماء ..

تمضى فتحضر الطشت . تخلع حذائى اللعين . تغمس قدمى فى الماء .. اسمع ابنتى وهى تجرجر فى الشارع فردة حـذائى الكبيرة وتقول : شى .. شى يا حمار .

تقدم منى الحائط . بحلق فى . احمرت عيناه . ظهرت انيابه . مد

فى وجهى اظافره المدببة . تراجعت . تقدم منى . تراجعت . السيارات تندفع خلفى . وقبل ان تدهمنى وتسحقنى استردنى الحائط اليه . جذبنى من خصرى بعنف . عانقنى . بصق فى وجهى . اغمضت عينى . فقدت وعيى لحظة . كدت اتهاوى .. زعق الضابط : ثابت يا عسكرى هناك .

حدق مسعد فى الحائط . تململ . عهدناه لا يتحمل الوقوف طويلا . يحب الحركة . القفز والدوران .. للأمام والخلف . اذا تحدث يتمدد وينحنى ، يطول ويقصر ، يلف ويرفع رجله اليمنى ، يصفق بأصابعه . يهرش « يشن » بانفه .

هو الآن متجمد . متحجر تماما كالحائط الذى يواجهه .

فجأة صرخ مسعد : امش يا كلب .

وفى لحظة قفز وتعلق بأعلى الجدار . استند بقدمه على موضع حجر متهدم .. استأنف : الحق يا حضرة الضابط .. رجل يحمل تحت معطفه رشاشا .. لقد رايته .

صعد الى السكك الحديدية . تقافز فوق القضبان . تحولت انادى الضابط . لم المحه قريبا ..

سررت ان مسعد رغم عدم تركيزه ولهفته الدائمة على الثرثرة والتسلية ، قد تنبه للرجل حامل الرشاش ، ولو لم يره لحدث ما لا تحمد عقبا .. حادث كهذا ربما يأخذ فى طريقه دولا بكاملها . وبالتحديد شعوبا بكاملها ، والشعوب فى راى مسعد :

ــ يعنى ناس مثلنا غلابة .

اضطربت للحظات .. ماذا على ان افعل ؟ الضابط اختفى الآن ، وكان دائما ورائنا .. لابد ان انطلق فى اثر مسعد ، غير معقول ان اتركه وحده فى مواجهة رجل مسلح .. صرخ اصبعى من نار الالم .. الحذاء الثقيل يغرسنى فى الارض . شطرتنى الحيرة . هل اذهب ام انتظر الضابط .. اذهب .. لا اذهب .. اذهب . لا اذهب .

قررت اخيرا ان اذهب لاساند مسعد ، مسعد اهم من الاوامر ، اهم من غضب الضابط . قفزت الى اعلى السور ، لم احس بالحذاء . عدوت خلف مسعد .. لحقته .

ــ ماذا هناك يا مسعد ؟

لم يجبنى ..

دنا منا قطار يستعد لرحلته الى السويس ، تتزايد سرعته لحظة بعد اخرى ، قال مسعد فجاة مشيرا الى القطار : ها هو .

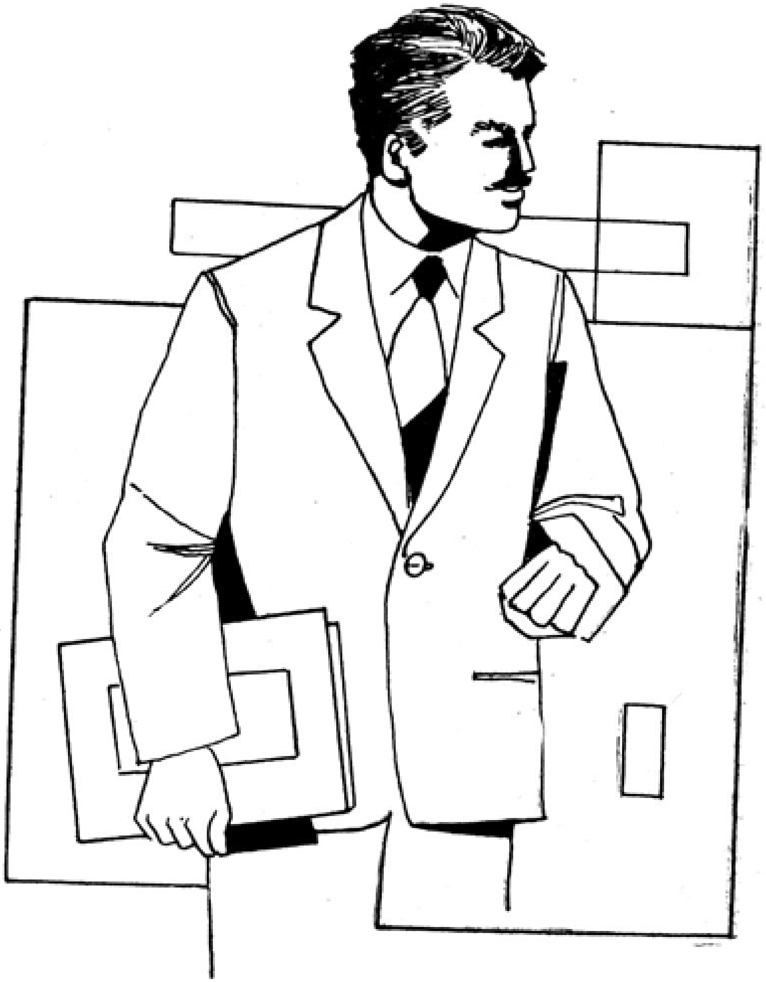
قفز الى القطار . قفزت . استنفرت قوتى . اشرعت سلاحى ، وفتحت الى اقصاهما عينى .. نسيت كل شيء عدا هذا المسلح .. اعددت نفسى لملاقاة الخطر . فليكن ما يكون .

فتشت عيناى عن مسعد .. الفيته يجلس امامى مباشرة على اول كرسى .. بحلقت فيه .. بنظرة سائلة عن المسلح .. بأصبعه على فمه راسيا قال : هس .

هممت ان افتح فمى معترضا ومتسائلا ، جذبنى من صدرى بعنف ، فألقانى على المقعد . اسرع القطار ونحن فيه ، فوجئت بأنى اركب القطار .. الهواء البارد يداعبنا بحنان .. يجفف العرق . المناظر الخلابة تتبدى لنا من منافذ القطار .. تعرض نفسها علينا وتغيب بسرعة .

تنفست بملء رئتى . لم اسأل مسعد عن الرجل المسلح .. وفى وقت واحد ضحكنا فجأة .

لابدّ أن نرحل



لابد أن نرحل

تأمل شعيرات ذقنه فى المرآة. مرت اصابعه عليها . راحت وجاءت عدة مرات . سمع صوت خشونتها . حلقها صباح أمس ، فكيف أصبحت لها الآن كل هذه الانياب . قال لنفسه : احلقها وتوكل . بسمة حلوة مع الوجه الحليق ، تحل كثيرا من العقد المكدسة فى كل مكان . يرضى عنك رئيسك . يتقرب منك الزملاء . آه ... والزميلات .

بدا فى آلية يحلق ، بينما كان يتابع عصفورا ينقر فى راسه . على الرغم من كونه موظفـــا جديدا ، لم تمض اربعة اشهر على تعيينه بالشركة الا انه استطاع فى مدة وجيزة ، أن يأخذ على طريقة العمل الحالية بعض المآخذ ، التى ما كان يجب أن تمر على قدامى العاملين بها ، دون علاج ، وهم فى منزلة اساتذته . لقد لاحظ ان الطريقة المستخدمة فى اعداد اجور آلاف العمـال بالشركة ، طريقة حلزونية ومطولة بلا جدوى .

لديه فكرة يود لو يعرضها على رئيسه لتقليل الاجراءات ، وفى نفس الوقت تحكم الضبط وتحقق الدقة فى الحساب .

يده تحتضن صدغيه وتنسحب الى أسفل ذقنه ، لقد تخلص من الشعيرات اللعينة ولكن ذقنـــه ما زالت خشنة . دورة أخرى فى الزوايا والاركان تصبح ابهى . البشرة ما زالت ملساء . ريعـــان الصبا وفورة الشباب . الوجه ما زال وجه طفل لم يقسمه سكين الزمن الى مناطق ، ولم تشق فيه الاخاديد .

اغرق وجهه مرة اخرى بالصـــابون . يداه تعملان فى روتينية واعتياد . لكن رأسه يفكر ويفكر .

انتهى من اناقته . بدت السعادة جلية عليـه . لانه ذاهب الى العمل . العمل الذى انتظره سنوات منذ تخرجه .. والعمل فى رأيه .. بداية الاستقرار والحياة الحقيقية .

استعد تماما .. الوقت ما زال مبكرا ولكنه انطلق الى الشارع فى حماس .

حملته رشاقة عمره فى خفة الى رصيف الانتظار ، ولم يطل به الوقوف جاءت على الفـــور السيارة المطلوبة . وقفت بجانبه .. التصقت به .. الباب مسدود بالملابس . الملابس محشوة بالبشر ، واذرع كثيرة تعمل فى حيـوية . تدفع هذا وتمسك بذاك ، لكنهـا لا تقدر على النفاذ فى الملابس الملتحمة .

حاول الشاب بكل الوسائل . فلم يجـد الا مكانا لنصف قدم ، وقبضة فى ذراع المرآة . اما وجهــه وجسده ففى الهواء . تعلق بالسيارة فحملته وانطلقت .

عض البرد يده المتعلقة بالمرآة . لم يسأل فيه وتماسك . سالت المياه من انفه . فكر ان يتسلى بالنظر فى المرآة ليتأكد من ســلامة ملامحه . الفاها بلا زجاج . مجرد قطعة من الصفيح الصدىء .

اخيرا وصل الى مقر عمله ، مر الوقت سريعا ، حتى لقد تأخر عن موعده ، اعاد ترتيب هندامه ، وتأكد من وجود حذائه وسرواله ونقوده وراسه . اطمـأن على كل اعضائه . كله تمـام .. هو الآن صالح للعمل .

نسى ما كان . حيا زملاءه وحيوه . جلس الى مكتبه . فتح الادراج التسعة . اربعة راسية على اليمين ، ومثلها على الشمال ، ودرج واحد كبير بينهما .

اخرج كعادته كل ما فيها من الاوراق والملفات . رصها جميعا على المكتب .. بســـط امامه أوراقا بعينها . اعاد النظر فى مذكراته الطويلة ، فيهايعرض طريقته الجديدة ، لاعداد اجور مصنع يزيد العاملون فيه على الفى عامل . انتهى من القراءة . سرح قليلا . تأمل السجادة التى تتوسط الحجرة بين المكاتب الاربعة . تساءل .. ماذا سيكون راى رئيسه عندما يقرا هذه المذكرة ؟

فى البدء سيؤخذ ، وربما يعيد قراءتها لانه بالطبع لن يفهمها من القراءة الاولى ، وبعد ان يقراها مرة ثانية . تلتمع عيناه بالزهو

والاعجاب . سيشعر بأن الادارة التى يشرفهـــا برئاسته ، تضم عقليات لا يوجد لها مثيل فى الادارات الاخرى . ليس هذا فقط . بل سيبدا فى نسج احلامه .

عليه ان يتقدم بهذا المشروع تملأه العزة ، لمدير الادارة ، وسوف يضيف من عنده قوله : لانى دائم القلق من اجل مصالح الشركة ، فقد فكرت فى هذا المشروع المختصر .. واخترت هذا الشاب لتنفيذ فكرتى « يقصدنى انا » نعم . لقد اخترته لانه موظف نجيب وهو مثلى قلق من اجل مصالح الشركة ومصانعها وعمالها .

وبعد ان يطل مدير الادارة فى مذكرة المشروع ، والجداول وبيان النتيجة المترتبة على تنفيذ الفكرة ، ومدى التوفير الذى ستحققه . سيأخذه العجب . لكنه سيكتم ذلك فى قلبه ويقول :

ــ حسن . اتركوها لى كى ادرسها .. غدا اوافيكم برأيى .

وقبل الظهر يكون قد دخل لمدير الشئون المالية والادارية فى امر هام ، يعرض المذكرة عليه فيدهش لها المدير ويسعد ، فيشد على يد مدير الادارة معجبا بنشاطه وكفاءته ويدخلان بها للمدير العام . آه .. هنا النهاية . هنــا الامل . هنا القرار الذى سيصدر فورا بتنفيذ الفكرة الجديدة .

لكنه ينسحب فجاة من بين المديرين ليستمع الى همس زملاءه فى المكتب .

نظروا اليه .. سألهم : ما معنى هذا ؟

اجابوه فى نفس واحد : يعنى دعك من هذا وتعال اسهر معنـــا سهرة واحدة ستظل العمر تذكرها . اخذته الدهشة .

قال : اى سهرة يا جماعة .. انا لا اميل الى هذا الصنف من اللهو .

اكدوا عليه : لا تنس . سننتظرك الليلة ..

قال فى ثقة : اطمئنوا . لن احضر .. لن احضر

عاد الى افكاره كأنه آب الى بيته الـذى يرتاح فيه .. هـؤلاء المجـــانين كيف يفكرون ! .. هل اللهـــو فقط الـذى

يشغلهم حتى وهم فى العمل .. وما بال المذكرة المقترحة لا تشدهم وتشغل بالهم .. الن توفر عليهم الجهد والوقت وتحفظ للشركة نفقات باهظة ؟ .. سيرون كيف يصدر المدير العام أمره بتنفيذ الفكرة ومكافأة مجزية لصاحب الفكرة .. صاحب الفكرة .. ومن هو صاحب الفكرة ؟ . انا طبعا .. ولكن ربما يدس رئيسنا انفه فيها . لا بأس . . أنا ورئيسى ، ولو انه لم يفعل شيئا ولم يكتب حرفا. وما هو موقف مدير الادارة .. ربما يصر هو الآخر على أن له يدا فيها أو انها فكرته .. لا .. غير معقول ان يقول انها فكرته فالمسائل ليست بهذه البساطة . الحلال بين والحرام بين .. فهل يسمح لنفسه بادعاء كهذا .. كلا .. ربما يقول انني اعجبت بالفكرة التى عرضها على هذا الموظف ، وربما يقول عدلت فيها قليلا ، وربما يقول بل ساهمت فيها بنصيب كبير . على اى حال لا بأس . أنا ورئيسى ومدير الادارة .. أما المدير المالى والادارى فمن غير المعقول ان يقحم نفسه ، ولو اننى لا استبعد ذلك ، فهو ذو انف طويل ويده دائما ممتدة لاى شىء .

لنفرض انهم سيدعون شيئا من هذا . اذن فسوف استحق فى هذا الاختراع الثلث او الربع حسب الطامعين .

يا للسعادة الغامرة . اذ يتحقق الهدف .. اننى افكر فى عملى ليل نهار .. اعطيه اعصابى بكل رضا واقتناع ، وكيف لا وهو رزقنا جميعا .. شجرتنا التى تظلنا .

ــ الشاى يا استاذ جاد .

دخل الساعى بينه وبين افكاره .. وضع الشاى على المكتب . ظل جاد يحلق فى المذكرة وكأنه يتأكد من صمودها أمام النقد .

حدث نفسه : يجب ان نبدأ مبكرين .

ترك الشاى ونهض . حمل الاوراق فى قلق . تقدم فى مشية عسكرية الى غرفة المدير ، لحق به الوجل وتعلق بصدره وقدميه . الوجل الذى ورثه عن زملائه كلما اتجهوا الى غرفة المدير . وجل بلا احترام وخوف لا يدفع للاهتمام .

اخذ الوجل يزداد كلما قصرت المسافة بينه وبين الباب المؤدى الى غرفة المدير . طرق الباب ، ولم يسمع صوتا . طرق مرة ومرة ولم يسمع .. ارتعد فى انتظار كلمة عظيمة تشق اذنيه وتملأ الفضاء . هى : ادخل .. ولكنه لم يسمعها .

فتح الباب ببطء كأنه يخشى ان يكون نائما فيزعجه . لم تزد الفتحة عن عشرة سنتيمترات . حتى بالكاد يرى المدير . وبالكاد يراه المدير اذا رفع راسه الكريم .

وجد المقعد خلف المكتب شاغرا .. تشجع قليلا وفتح الباب عشرة سنتيمترات اخرى لتتسع الرقعة المنظورة امامه . لم يجد احدا . تملكته جراة لم يعهدها ازاء باب المدير ، فتحه الى نصف مداه . فمهما كانت جراته لا يجب ان يفتحه كله . لانه لا من سلطته ولا من حقه ان يمسك اكرة الباب وحدها .

رئيسه غير موجود فى اى ركن بالحجرة .. دخل ودار فيها . رفع عينيه الى سقفها . عبأ نظراته وشحن ذاكرته بما فيها ، كأنه يخشى ان ينساها ..

وقف ينتظر .. يده على مسند احد الكراسى الضخمة . لكن اصابعه كانت تتحسس الجلد المشدود فى غطرسة وكبرياء . فكر ان يقعد على الكرسى « الفوتيل » امام المكتب ولو من قبيل التذوق والاستطعام . لكن هاجسا طرد الفكرة بقسوة . ربما يغضب المدير اذا رآه جالسا مستريحا كأنه فى بيتهم . استدار ليعود الى مكتبه . فوجىء بالمدير يمرق داخلا من الباب . وبيده بعض الاوراق .

ــ ماذا هناك يا استاذ شبراوى .

تساءل : ياه .. تنادينى باسم جد جدى .. لماذا لا تقترب منى وتنادينى باسمى وانت تعرفه .. وهو سهل جدا .. اسمى جاد . أليس اسهل من الشبراوى فما سبب الفطرسة ؟ هل ترى ان راس حضرتك براس جد جدى .

ــ رديا سيد .. نعم .

ــ آه .. فعلا .. اصل .

بلع ريقه ثم تابع فى تماسك : انا فى الحقيقة .. كان قصدى ان الاجراءات ..

— خلصنى .

— فكرت فى ان طريقة اعداد الاجور مطـــولة وتحتاج لوقت ونفقات .

— وانت مالك .

— راودتنى فكرة .

حاول ان يتبلع ريقه فلم يعثر عليه . شد عروقه بحثا عنه . لكنه لم يجد له اثرا .. بلل شفتيه لتنزلق الكلمات ..

— راودتنى فكرة لو نفذناها ستوفر كثيرا من الوقت والجهد ..

— وماذا ايضا ؟

— هذا كل ما هنالك .. وهذه هى الفكرة .. بامكاننا ان نستخرج مرتب اى عامل من غير تضريب . فكل شىء مبين بالجداول . شوف حضرتك .

اخذ المدير الاوراق وهو فى نصف حالة غضب . يعنى جاهز للثورة من مجرد عرض الموضوع .

مضى يقرا باهتمام .. شمل الفرفة صمت لا تزعجه حتى انفاس من فيها .

كان المدير واقفا فجلس . اقعدته المذكرة . وشدته الفـــكرة الجديدة . بدات عصافير السعادة تتقافز فى صدر جاد وتفرد . قال لنفسه : انبهر الرجل بما راى . وبعد قليل سيقفز من الفرحة قائلا : هـذا ما كنت ابحث عنه .. سيعجب كيف انى رغم سنى وحداثة عهدى بالعمل ، قد فهمت كل شىء .

اخذ يبحلق فى وجه المدير . تأمل عينيه . كيف ينظر ، وكيف يتكرمش جفناه كى يرى اكثر ، وانفه الذى تدبب ، وعظمتى خديه البارزتين .

اسند مديره جبهته الى كفـــه اليمنى . عاد فاستبدلها بـكفه اليسرى .. فجأة .. القى الاوراق فى الفضاء قائلا :

— ما هذا يا سيد ؟ .. هذا تخريف .. هلوسة .. وفوق انه مجهود ضائع . فهو يدل على انك لم تفهم عملك بعد ..

— يظهر حضرتك لم تقرا .

— بل قرات . وعلمت امرا جديدا لم اكن اعلمه . انت مفرود .

حاول الا يستسلم للرفض ويتراجع .

قال :

— نتناقش ...

— هذه هلوسة لا اناقشها .. ليس عندى وقت اضيعه معك ... تفضل .

استولى على جاد غضب هائل . لكنه امام المدير لا يستطيع الا ان يموت فى جلده ، ويفقد سمعه وبصره ولسانه ، فلا يعود بامكانه ان ينطق او يبصر او يسمع شيئا ...

اى شىء .

انحنى فى هدوء كى يلتقط مشروعه الذى كان يطير منذ دقيقة فى فضاء الفرفة . وسقطت كل ورقة منه فى ناحية .. لكن مديره صرخ :

— قلت تفضل على مكتبك .

فتفضل جاد خارجا منكسرا .. وحاول ان يبحث عن اى فكرة فى راسه .. فلم يتلق اى اشارة .. لقد تحطمت الابراج ، واندلقت كل القوارير ، وتعثرت الخطوط ، واحترقت الصمامات ، فانقطع الارسال .

دق فى صدره سؤال : هل استمع احد الى النقاش الذى دار مع المدير ؟ . النقاش الذى اطاح بى وبأفكارى وبشخصى وبآمالى بلا ادنى رحمة .

لم يستطع أن يفتح عينيه ليرى الطريق . لم يستطع أن يفتح فمه ليحيى من يقابله أو يرد تحيته .. ارتاب فى قدرة جسده المخـــدر بالهزيمة ، على ان يكمل طريقه الى المكتب .. هناك حيث ينتظره زملاؤه ليعرفـوا مصير الاختراع . الاختراع الـذى ظل يعمل فيه

بالبيت ، مدة تزيد على عشرة ايام بلياليها . هز راسه فى الم .. سيضحكون كعادتهم .

انهم يضحكون من كل ما يجـــرى وفى نفس واحد . رءوسهم ونفوسهم مشحونة ببرنامج اليكترونى واحد . سيسقطون معا على الارض من السعادة أو السخرية أو من التشفى او س او من .. بملء اشداقهم وحلوقهم سيضحكون منى .. منى .

بلغ بصعوبة باب المكتب .. توقف . استند الى الجـدار . لم يدخل . قرر ان يخرج من الشركة كلها .. لن يكتب اذنا ولن يوقعه من المدير حسب الاوامر ، ولن يتركه لزملائه .

انطلق كالصاروخ الذى يعرف وجهته ، ومرق من البوابة الواسعة دون أن يجيب من نادوه ، أو يعير مراقب الباب التفاتا .

تسكع فى الشوارع .. الساعة الحادية عشرة . مضى يتفرج على معارض المحلات . لاحت له عينان مثل عينيه تبحلقان فى وجهـه من خلال الزجاج . خجل من نفسه . لم يتعود الفرجة على الفتارين .. تابع سيره فى غير اتجاه .

تذكر الاهانة . اجترها . الفاها مرة . احس بالاستهانة . وود لو يحمل الطـــوب من الارض . ويضرب العربات ويهشم زجاج المبانى ..

توقف عند احد الاكشاك . ابتاع علبة سجائر . اشعل منهــا سيجارة فى ارتباك . خيل اليه ان الناس ترمقه فى عجب لانه يشرب سيجارة . النـــــاس تحملق فيه .. تجمعوا حوله . لماذا يشرب سيجارة . ضحكوا .. سخروا منه . كل الطريق يضحك . شاب يشرب سيجارة ويخرج من فمه دخانا . القاها على الارض .. ضحكوا. داسها بقدمه وبعثر باقى العلبة فوق الرءوس .. هلل الجميع . ضاق بالناس .

الشارع يمتلىء بالناس كانه مزاد لبيع البشر .. تساءل .. من اين كل هؤلاء . اليسوا فى اعمـــــالهم ومصانعهم .. مزارعهم .. مدارسهم .. ام ان كل رؤسائهم فعلوا معهم ما فعله معى المدير .

لقد عاملنى بغلظة وطردنى شر طردة . رغم انه كان يقول دائمـــا انى بمثابة ابنه . ربما لانى اطيعه فى كل ما يأمر واستسلم له .

الآن يرانى الابن العاق . لأن لى راى .. وماذا اكون اذا لم افكر واذا لم يكن لى رأى ..

مضى يتسكع فى غير اتجاه .

زحام فى قلب زحام .. خرج الزحام من قلب الزحام . ليلتقى بزحام ملتحم بزحام ويفترقان فيصطدم كل زحام بزحام . ضـــاق بالزحام . قرر العودة الى البيت .

بلغ الدار . احس برغبة مجنونة فى التبول . اندفع مباشرة الى الحمام .. تعرى . انتظر .. دعا نفسه للتبول .. نادى أعصابه . لم يتبول . بعد لحظات سكتت اعصابه . اقترب من المرآة . بحلق فيها . لم يجد وجهه . المرآة غير مكسورة فأين الوجه . اين يا ترى تركه . فى الشركة أو فى محل . هل سقط فى الطريق . أمسك راسه .. وجدها . دارت حولها يداه . لكنها لا تظهر فى المرآة. صحيح انه يحس براسه فوق جسده كالبطيخة . كتلة لا دماء فيها ولا نبض .. لكن اين صورة وجهه التى تعكسها المرآة !

لقد راى جسدا يرتدى بدلة ولا راس له . صعد الى السرير . سحب كتابا وبعض المجلات ليقرا . تقل عينيه بينها بلا جدوى .. الحروف ضبابية مغيمة كانه يقرا من خلف زجاج مهشم .. واجهه عقله بالحقيقة التى يحاول التغلب عليها . لا أمل فى القراءة الآن رغم حبك للقراءة .

ذاب فى لحظـة تأمل غير مركزة . احس بالتفاهة .. تفاهة كل شىء .. لماذا يجرى الناس ويتعبون ويفكرون .. مديره سخيف ودم زملائه ثقيل . والرجال فى الشوارع اغبياء .. والسيارات بلهاء .. هذا العالم غريب .

انزلق بظهره فى السرير ، فأصبح راسه على الوسادة .. تمنى ان يكون هناك عالم آخر يجد فيه ذاته .. تسمع له كلمة .. ولا يسحق فيه كحشرة .

انقطع الارسال مرة اخرى .. وتوقف فى راسه سيل الصـــور المتعاقبة .. نام ..

نام طويلا واستيقظ . دار حول نفسه وحول الشقة لحظات .
فجأة اسرع يرتدى ملابسه ويمشط شعره فى المرآة . اطمأن لان وجهه عاد الى الظهور فى المرآة ، وان بدت ملامحه مختلفة وعيونه منتفخة ، وجبهته مجعدة بخطوط عريضة وذقنه طويلة . فتعجب .. الم يحلقها فى الصباح .

نزل الى الشارع . لم يقف على رصيف الانتظار . مضى من شارع الى شارع . بدا كمن يمنع قدميه من الاسراع .. ويحاول رد فكرة مجنونه فى راسه .

بعد مسيرة نحو ساعة وجد نفسه فى قلب المدينة ، ثم انحرف الى احد احيائها الشعبية ، ودلف الى الحارة المسدودة التى وصفها زملاؤه . لقد قالوا له : سننتظرك الليلة لنسهر معا .

فتح الباب . استقبله زملاؤه بالاحضان المتلهفة ، كأنه كان غائبا لسنوات طويلة .

استسلم لهم . سكنت اعصـــابه . لم يهتم بالارض حين مالت به . قالوا له : لا أمل فى أن تفكر هناك او تحلم .. اما هنا فبامكانك أن تحلم كما تشاء ، وتغير كما تشاء ، فنحن هنا أصحاب الراى والـكلمة .

احس بالرضا ولم يعبء بالارض وهى تهبط رويدا رويدا ...

البــوابــة



البوابة

لم يفاجئه الجمع الكبير الذى ينتظره فى مكتبه ، فقد تعــود عليه ، ولكنه كان كمن نسيه لحظة .

علا صـــدره مع انفاسه اللاهثــة ، تنبه للمجهود الذى بذله فى صعود الدرجات . نظر الى الناس واطال النظر . حملت نظراته بعض المعانى . حومت فى رأسه الافكار .

« سبحان الله .. متى ينتهى هؤلاء الناس ؟

فى كل صباح تستقبلنى الوجوه ، وتفتش فى النظرات ، فى كل صباح آتى وحدى الى هذا المكتب اللعين . لا يدفعنى احد اليه ، لكنى وحدى احضر لالتقى بهذه العيون ، لا احد يدق بابى ويحملنى الى هنا قسرا .. اتعلق بالاتوبيس أو بالترام .. اتعلق .. واحيانا اندس فى سيارة اجرة . اتشبث باى قشة لاصل الى العمل ، واصعد تسع وسبعين درجة ، فأجد كل هؤلاء فى انتظارى .

كلهم يريدون بطاقات شخصية .. بطاقات .. شخصية .. اى بطاقات واى شخصية .. سذج » .

بحلق فيهم وتنهد .. اتجه الى المكتب . حدق فى المقعد ، وكأنه يسأله ان كان مستعدا للعمل ام لا .. انحط عليه ، فانحط الناس فوقه . تدافعت المناكب وامتدت الايدى وتناطحت النظرات .

فى وجهه اشرعوا الاوراق . ضـــــحك فى الم . كلهم يريدون بطاقات شخصية .

فى عينيه .. تماما فى عينيه ، يتسابق كل منهم كى يدس اوراقه قبل الآخر .. زعق طالبا شاى الصباح .

بحلق فى الاوراق الممتدة نحوه ، ترفرف فى الهواء .. ترفع اليه الدعاء والتضرع .. تتمنى أن تمتد اليها يده .

تجاهل الاوراق ..

ببطء درامى تصاعدت نظراته الى اعلى .. الوجوه تترقب منه كلمة . اشارة . سؤال . همهمة .

لكنهم يحلمون .

الصف الاول يتكدس فيه عشرون وجه .. حاول أن يعلق عينيه على مشجب اى وجه .

جال فيها وسافر .. لم يتوقف عند اى محطة . كل الوجوه مسطحة وكل البلاد متشابهة . نفس الانف . نفس الشفتين . نفس الجباه والذقون . غير معقول . لا يشبه وجه فى الدنيا وجها آخر . هو رآهم كذلك .

فى الصف الثانى اكداس من الوجوه . انصاف الوجوه .. قطاعات طولية فيها عين ونصف انف ونصف شفة وربما ربع ذقن وخد ولا اذن ..

وخلال كل ذلك بلفته لهفتهم وقلقهم .. خوفهم وانتظارهم .. كراهيتهم .

غامت الوجوه فى عينيه . رآهم بوابة حديدية ضخمة لسجن كبير ..

بوابة هائلة من الوجوه والعيون .

حاول أن يرى ابعد من البداية .. لم يجد غيرها . بوابة تمتد من اول الاوراق المشرعة فى عينيه الى آخر الصفوف .

« لن تقهرنى نظراتكم ولن استجيب لها . لن يؤثر فيما تلقونه امامى من رجاء واحترام .. كل مشاعركم تجاهى مزيفة .. كلها موضع شكى . انا على ثقة انكم تلعنوننى بالرغم من نظرات الابتهال .

لن اعبأ بكم . لن تدفعوننى لشىء لا ارضاه . انا فقط الذى احدد متى ابدأ العمل » .

مثل محصل الاتوبيس ، تقدم عم ابراهيم بطريقة دودية يحمل الشاى ، يردد كلمات التحذير والاستئذان والتنبيه .

وضع الشاى على مكتبه ، ثم قفل راجعا وسط الزحام .

نظر الموظف الى الشاى بامتعاض . بدت النظرة كما لو كانت موجهة فى الاصل لهم ، واخطأت طريقها فمضت وانسكبت فوق الشاى المسكين .

مزيدا من الاهمال والتجاهل والعناد والفطرسة .

اخرج من جيبه سيجارة واحدة ويبدو انها وحيدة ..

محطمة كانت ، كانه نام عليها .. اخذ يصلح من شأنها ويسوى جوانبها ، واخيرا وضعهافى فمه.

وعلى الفور امتدت اليه القداحات وتقربت اليه اعواد الثقاب .

اشتعلت نيران صغيرة وتراقصت أمام معبده .. نظر الى الشموع المضاءة والنيران التى تتلوى متلهفة الى عناق سيجارته .

برهة ثم وضع السيجارة فى جيبه وترك النيران ترقص ، ونهض فجاة .

اجتاز الزحام الذى انشق له فجاة ، كانه عصا موسى .. خرج . خرج نهائيا .

احدا منهم لم يتخل عن موقفـه . تدلت السيوف المشرعة بالاوراق .. مضت عيون الصف الاول تلوك الصبر وترقب الدخان الذى بدأ يخف ويتلاشى . الوقت يمر .. الدخان يمضى والوقت يمر والصبر ينفد .

الموظف المختص لا يظهر .. تصاعدت السنة الهمهمات .

ـ تراه اين ذهب ؟

ـ فليذهب احدكم للسؤال عنه .

ـ اذهب انت .

سقط الصمت ولم يذهب احد .

عاد خيط الكلمات يتسلل من بين الأفواه .

ـ انا هنا من السابعة .

ـ انا هنا من السادسة والنصف .

ـ انا هنا من الامس .

لم يحتمل احدهم هذه المبالغة .
ــ وكيف هذا ؟
ــ جئت بالامس وبت عند اخى المقيم فى نهاية هذا الشارع .
ــ أين تراه ذهب ؟
نفذ الصبر ، لكن المواقع المحتلة تحتاج لمزيد من الصبر . لا يمكن التخلى عنها بسهولة . انهم الطليعة . المقدمة التى يتعين عليه ان يبدأ بها ، سواء هو او غيره . اليوم او غدا .
امتد الصبر قليلا ولم تتوقف الاسئلة والاستفسارات والهمهمات، تم بدات لفة جديدة .
ــ استهتار .
ــ قلة استعنا .
اطلت كالعادة اصوات العقل . كالعادة وفى اشد الحالات سوءا وفى اتعس المواقف .. تسمع أصوات العقل .
ــ طولوا بالكم يا جماعة .
ــ كلها عشر دقائق او ربع ساعة .
ــ ربنا خلق الكون فى ستة أيام .
ــ هانت .
فى عز الضنك وتسمع الجموع من يحدثها عن الصبر وعن طول البال .
لكن نغمة السخط تتسرب من جديد .
ــ نحن هنا منذ ساعتين .. شىء فظيع .
ــ الفظيع هو انت .
ــ انا ؟
ــ كف عن دفعى للخلف .
ــ بل انت الذى تدفع .
ــ لقد صبرت على افعالك مدة كافية .
تزداد المشاحنات كلما قل العمل او انسد الطريق فى وجه الامل . يواجه الافراد بعضهم بعضا ويتقاتلوا .

ــ انت الذى صبرت علينا ام نحن الصابرون على حجمك وانت كالفيل .
ــ انا كالفيل يا ..
ــ يا جماعة .. لا يصح هذا .. صبرا .. فات الكثير ..
ــ هانت .. تحملوا .
ــ الاستاذ وصل .
ــ افسح يا سيد .. افسح يا اخ .
ــ انه عم ابراهيم .
ــ اين الاستاذ يا عم ابراهيم .
ــ يشرب الشاى .
ــ الشاى هنا امامنا .
ــ يشرب غيره فى القهوة .
ــ ماذا تقول ؟
ــ ما سمعت .
تعالت الاصوات وضجت الافواه باللعنات والاعتراض .. فجاة لم يجدوا نقطة صبر واحدة . بحلقوا فى وجوههم وكأنهم يبحثون عن الوسيلة .
قررت فئة منهم شجاعة ان تنزل الى القهوة ليحملوه منها حملا ..
هبطوا الدرجات وهم يلتهبون حماسا وبأسا . يرددون عبارات رادعة يجب ان يقولوها .
قبل ان يبلغوا القهوة حدث تعديل فى زحف المسيرة ، فتقدم اشخاص وتراجع آخرون ، اندفع البعض وتوارى البعض واعتدل البعض .
لمحوه بالمقهى يطالع الجريدة وامامه الشاى . رآهم . اشاح بوجهه الى الجانب الآخر . تقدم منه الفيل وكأنه ادرك حجمه اخيرا .
ــ يا استاذ .. نحن هنا من ساعتين .
لم يرد .

تقدم المتشاجر مع الفيل ، فهو ليس اقل منه ، واذا كان الفيل هو الاكبر حجما ، فانه الارجح عقلا .. قال :

ــ وراءنا مصالح .

ــ اخذنا بصعوبة اذنا من العمل بساعة .

لم يعبأ . تقدم آخرون وقالوا ما قدروا عليه من الكلمات الهادئة .. الراجية .. المتمنية .

سحب من سيجارته نفســـا طويلا واغلق عليه فمه ثم نفثه فى وجوههم وعاد الى الجريدة .

تدفقت منهم عبارات مبهمة تستهجن وتستنكر . فجاة دق المنضدة وتفجرت كلماته من بركان شدقه :

ــ ماذا تريدون منى ؟ .. اريد أن افهم ماذا تريدون ؟ .. ابتعدوا .. لن أبرح مكانى قبل أن أشرب الشاى وانتهى من السيجارة .

تحمس الفيل .. فى حزم واصرار قال :

ــ بل ستصعد معنا الآن .

القى بالقنبلة التى يتضاءل معها الكل .

انبهر الجميع بهذه العبارة القوية الصــارمة ، فايدوها بعنف ، واقتربوا من الفيل ، تداخلوا فيه ، اصبحوا جميعا صفا واحدا . متحد الملامح ، تحمل عيونهم نفس النظرات .

ابتسم الاستاذ فى قرف ولم يرد عليهم . تصور الفيل ان الاستاذ لم يحس به ولم يهتم بكلامه ، فهو اذن غير محسوب . لابد ان يعلم الجميع انه ليس بناء هشا .. قال :

ــ الى المدير يا جماعة .

اندفعوا الى المدير فى هدير صاخب وزمجرة .. استوقفهم عند الباب ابراهيم .

ــ نريد المدير .

ــ لم يصل بعد .

ــ بل وصل ورأيناه منذ قليل .

ــ فيم تريدونه ؟

ــ لا دخل لك .. افسح الطريق والا ..

تخلى ابراهيم عن الباب . فتحوا . لم يجدوا المدير على مكتبه . كان بالركن الآخر يكح . بكل قسوة يكح ويسعل ويبصق فى المنديل . ثم يعود ليسحب الانفاس من البورى الرابض أمامه .

راعهم وجهه المحتقن وعيناه الجاحظتان وانفاسه المضطربة كشخص يختنق .. بحلق فيهم .

ــ ماذا ؟

ثم كح .

ــ ماذا ..

ثم كح وبصق .

ــ ماذا تريد .. ون .

العجز



مهموما . شاردا . لا يتحكم فى خطواته ولا يحس بقدميه ، عاد الى بيته بعد الظهر . يجتر فى راسه ما حدث .

فهو يراجع خزينته كل يوم ويضبط المنصرف منها مع الاذونات المقدمة اليه . كل يوم . كل لحظة يتأكد من سلامتها ودقة مافيها بالمليم ، فكيف تكتشف لجنة الجرد المفاجىء أن لديه عجزا فى عهدته المالية قدره ١٤٢٫٦٥٠ جنيها .

شيء يقرب من المستحيل ، لقد عرف الجميع عنه دقتهوحساسيته المرهفة للنقود كأمين خزينة قديم . اكثر من عشرين عاما وهو بهذه الحجرة وامام هذه الخزينة ، ومن هذه النافذة الصغيرة يصرف فى الشهر للموظفين وغيرهم ما يقرب من ربع مليون جنيه ، ومع ذلك لم يحدث أن فقد مليما واحدا .

وهذه الايام بالذات تشـــــهد بأن حركة النقد الوارد والمنصرف محدودة ، اذ أصبحت الهيئة تعتمد على الشيكات اكثر من النقدية فى صرف مستحقات المتعاملين معها .. فكيف حدث هذا العجز !!

المبلغ يبدو تافها لا يخيف ، ولا يرهقه كثيرا اذا اضطر لدفعه ولو على شهور ، لكن القضية بالنسبة له ليست حجم المبلغ ، انمـــا الكرامة . الخبرة فى العمل . تاريخه فى الهيئة . السمعة والكفاءة. الناس . آه من النــــاس وما يدور فى رءوس الناس وفى نفوس الناس .. وعيون الناس .

كفاءة الشخص فى عمله تحدد نوع النظرات التى توجه اليه ، فالناس لا يمكن أن تحترمه اذا كان مهتزا فى عمله أو معـــدوم الـكفاءة .

عندما اقترب من بيته كان قد أوشك على السقوط من طول

التفكير ، ومما زاد فى ارهاقه وانهاك جسده انه لم يصل الى نتيجة، ولم يهتد الى حل ولم يضع يده على سبب لهذا العجز ، رغم انه بذل جهدا كبيرا لاعتصار ذاكرته التى يعتقد الآن انه فقدها .

لم يتذكر اى شىء . احس بالعجز عن التفكير . بل احس ايضا أن اجهزته لم تعد تعمل .. فمؤكد أن قلبه الآن متوقف ، وجهازه الهضمى متعطل ، حتى جهازه التناسلى .. كل شىء مات .. انه مجرد شىء يتحرك .. يتحرك بقدرة الله وحدها .

صعد درجات السلم وهو يفكر بآخر ما تبقى فى راسه من اعصاب . دخل الشقة وهو يسحب آخر ضوء فى شمعة فكره وذاكرته .

وقعت عيناه على التليفزيون ، ووقعت عين التليفزيون عليه . الفى نفسه يتجه ناحيته . ادار المفتاح . نطق التليفزيون .

كانت الشقة سابحة فى السكون . دوى فيها الصوت الخافت والضوء الباهت .

نسى الرجل كل شىء وكأن راسه التى يحملها دائما فوق كتفيه ، قد استبدلت براس اخرى ، خاوية تماما ، ولا تدرى شيئا عن اى شىء .

انكشف صدر التليفزيون عن منظر لراقصة رائعة اللحم تتلوى .

جلس الرجل على كرسيه المعتاد وسط الردهة . ظهره الى الجدار ووجهه بالضبط .. بالضبط فى مواجهة جهاز التليفزيون ، بلا سنتمتر واحد جهة اليمين وبلا سنتمتر واحد جهة اليسار . والراقصة فى قلب الدنيا .

ظلت عيناه عليها لا ترمش . تأمل بكل اهتمام حركاتها المثيرة الغريبة .

قال فى نفسه او قالت له نفسه : راقصة عظيمة حقا .. منتهى اللياقة والليونة والجمال .. هكذا يجب أن تكون النساء .

تسرب الى راسه دبيب خافت ، ينقر فى رفق .. يذكره بالعجز والخزينة ، احس التليفزيون بالنقر ، فمد يده الخفية التى تقف

فوق راس الرجل تحرسه وتوجهه . وطرد كل الهواجس ، ولم يسمح بأى نقر على راسه الذى يعتز به ، ودق على مفتاح التثبيت ، اى المفتاح الذى به تثبت عينا الرجل على التليفزيون فلا يرى غيره .

استرخت اعصابه فمد ساقيه على المنضدة الصغيرة .

ـ هل جئت يا يوسف ؟

جاءت زوجته الممتلئة من الداخل تدق الارض . لم يتنبه لصوتها. وضعت يدها على كتفه . ادرك وهو مرتبط بالراقصة انها زوجته . وضع يده على يدها ـ دلالة على انه يرد تحيتها ـ دون ان يرفع نظراته عن التليفزيون .

مد التليفزيون يده الخفية المكونة من ذرات مشعة ، فوضعها على راس الزوجة الممتلئة ، فهبطت على الكرسى كأنها تحمل اثقالا تنوء بها . ربطها بأحباله . ثبت على راسها لوحة أزراره . امرها ان تتعجب وتدهش وتفار .

قالت : خفيفة كالريشة .. الم يكن جسمى مثلها يا يوسف ؟

لم يسمع يوسف شيئا ولم ينطق حرفا .

فجأة اختفت الراقصة وظهرت صورة ثابتة للأهرامات بينما الموسيقى تعزف .

لم يسمع يوسف شيئا ولم ينطق حرفا .

لحظات واذن المؤذن لصلاة العصر ، وتغيرت الصورة ، فاصبحت مسجدا ومأذنة مرتفعة يصعد عليها التليفزيون ويهبط ، ويجوس خلال ابهاء المسجد واعمدته الفخمة .. بينهما بعض المصلين الخاشعين .

تذكر الرجل انه لم يصل الظهر ، لكنه راى ان يصلى الظهر والعصر معا .

بعد لحظات دق جرس الباب .

رفع التليفزيون يده الوهمية عن راس الزوجة ، واتاح لها الفرصة كى تسمع ، وامرها ان تفتح الباب .

فتحت الباب . دخل ولدها الاكبر . سلم على ابيه . سأله ابوه بينما كانت الام تحول القناة .

— اين كنت حتى الآن ؟ .. الا تخرج من المدرسة فى الثانية .

— نعم ولكنى كنت فى ..

وضع التليفزيون يده على راس الرجل وجذبه اليه ، ولمس مفتاح التركيز .

بطرف عين اطل الرجل على الصورة فشاهد عناوين الفيلم الاجنبى وحركات الممثلين العنيفة منذ البداية ، فأطلق سراح ولده وكف عن السؤال .

— طيب .. طيب ادخل الآن .

لم يعرف اين كان ولده واخذ يتابع الفيلم . وضع التليفزيون يده على راس الولد وحوله اليه ، فلم يدخل كما امره ابوه وانما القى بحقيبة الكتب على الكرسى ، وجلس على آخر . تكاد تثقب نظراته شاشة التليفزيون من شدة التحديق .

انتبه الجميع فى شغف الى هذه البداية الساخنة التى بدا بها الفيلم .

توقفت سيارة نقل كبيرة مزدوجة المقصورة ، وهبط منها اربعة من الشباب ، ضخام الجثث ، مفتولى العضلات . مفتوحى الصدر عن شعر وسلاسل ذهبية . انتشروا فى المكان يحلقون فى تحفز الى كل من يخرج من باب الحانة .

وخرج شاب . ما ان وقعت عيناه عليهم حتى اهتز ، اذ عرف فيهم خصومه .

استعدوا له وبداوا يقتربون منه . كل واحد يدنو من زاويته ، والشاب يمسح المكان بنظراته القلقة ، باحثا عن مهرب .. وقبل ان يلفوه بخطواتهم المتئدة المنذرة ، استنفر قوته جميعها واسرع بالقفز فى اتجاههم ليفلت من بينهم ، لكن اثنين منهم تشبثا به ووقعا فوقه وجاء الآخران ، واوقفوه ليضربوه ، لكنه تمكن من افلات ذراعه الايمن وضرب به احدهم ، واختطف الذراع الايسر وضرب به آخر والثالث بقدمه اليمنى والرابع بقدمه اليسرى ، واسرع الى سيارتهم فركبها وطار بها .

نهضوا اخيرا ينظرون فى خيبة الى سيارتهم التى خلفتهم .

قدمت البنت الصغيرة من الداخل :

— جوعانة يا ماما .

لم تسمعها الأم . هزتها الطفلة .

فى عجلة كان الشبان الاقوياء يندسون فى سيارة اجرة لاقتفاء آثار الشاب الهارب .

ضغط التليفزيون عن طريق جهازه الداخلى الذى يتحكم به فى رءوس المشاهدين على مفتاح الوعى عند الأم . افاقت وتنبهت ليد ابنتها :

— ماذا تريدين ؟

— جوعانة .

— نعم .. نعم .. سأحضر الطعام . اجلسى .

جلست الطفلة تتابع الفيلم معهم ولو انها لا تستطيع ان تقرا الترجمة . عاد التليفزيون فاسترد الام . مضت تتابع الفيلم ونسيت الطعام ، اذ المطاردة على اشدها بين الشاب الذى خطف الشاحنة وبين اعدائه فى السيارة الاجرة .

مال الشاب الى اليمين فجاة ودخل شارعا ممتدا ، التقطت عيناه على حين غرة منزلا كبيرا ببوابة خشبية ، اقتحمها ودخل المنزل ، فاختفى فجاة عن العيون التى تحدق فى الشارع وتنطلق الى نهايته .

اسرع الشاب بالخروج والعودة من حيث اتى ، دون ان يلتفت الى اصحاب الدار الذين علا صياحهم وسخطهم لرؤية البوابة المهشمة .

واخيرا دخل بالشاحنة احد الجراجات ، وهبط منها واغلق عليها باب الجراج ثم اشار لسيارة اجرة فحملته الى مكان آخر .

— جوعانة .

كانت الام تتابع الشاب باهتمام ، وهو يعانق فتاته عناقا حارا ، وكذلك كان زوجها يتابع ، واكثر اهتماما منهما كان الابن الاكبر .

— جوعانة .

— ..

— جوعانة .

انتهت القبلة ، وجلس الشاب على الكرسى ، وشرعت الفتاة تقدم له بعض الاطعمة والمشروبات ، فصرخت الطفلة .

ـ جوعانة .

انزعج التليفزيون من صراخها ، فهو لا يحب الضجيج ، ويتعكر مزاجه اذا لم يتوفر الهدوء التام واذا لم يحظ بالاهتمام ، بل ولابد أن تكتسى الوجوه بعلامات الدهشة والانبهار . لذلك فقد أعاد الوعى الى الأم حتى لا يتكرر صراخ الطفلة ، فنهضت الى المطبخ وهى تقول :

ـ حالا يا ابنتى حالا .

وضعت الاطباق على المنضدة الصـــغيرة فى « الانتريه » أمام الزوج .

اخذوا جميعا ـ وعيونهم على الفيلم ـ يمدون الايدى ويقضمون فى بطء ، ويمضغون كبقرة تجتر غـذاءها تحت الشـجرة فى ظل الاصيل .

جاء الابن الاوسط :

ـ لماذا لم تنادوننى لأتناول طعامى ؟

لم يعره احد التفاتا . جلس يأكل . مد التليفزيون يده الخفية . جذبه نحوه . بدأ يتابع الفيلم . ويتناول الطعام بيده دون أن ينظر اليه ، واصبح حاله كحال الباقين ، منهم من يضع ملعقته فى الملح بدلا من وضعها فى طبق الارز ، وآخر يضع لقمته فى الارز بدلا عن وضعها فى طبق الملوخية .

انتهى الفيلم فامر الاب ابنه ـ كأنه فى غرفة العمليات العسكرية ـ بسرعة تغيير القناة . ظهر المدرس وهو يشرح البرامج التعليمية . تسلل الفتور الى الجميع ، حتى الكبير الذى يعيد السنة الثانية الثانوية ، والصغير الذى انتقل بصعوبة وبعد ملحق الى الاعدادية لم يرض أى منهم ان يشاهد البرامج التعليمية وحولوا القناة ..

دخل الى حجرته الابن الاوسط وحز ذلك فى نفس التليفزيون اذ انه يجتهد فى سبيل ارضائهم ، وهمهم بكلمات اشعاعية غامضة ، كان بها يود ان يقول لهم :

ـ اننى اجهد نفسى كى اقدم لكم كل شىء واجلب لكم المتعة والمنفعة

من كل بقاع الارض . اوفر عليكم الجهد حتى لا تنتقلوا بين الاغصان كالعصافير بحثا عن عش سعيد . امكثوا امامى واقبعوا فى مقاعدكم وسوف اقدم لكم ما تشتهى انفسكم .

حاول الآب النهوض لخلع ملابسه ، لكنه لم يستطع ، فمنـــذ فترة وهو يشكو من ركبتيه ، رغم انه لم يتعد الخامسة والاربعين .

حاول مرة اخرى الى ان نجح ، ورفعت الام اطباق الطعام دون مساعدة الاولاد الذين اصروا على مشاهدة الاعلانات . وكل منهم تتجدد امنياته مع كل اعلان . فهو يتمنى أن يشرب ببسى .. ببسى ثم يتمنى ان يغسل اسنانه بمعجون آرتف بالفلورين ، ويتمنى ان يركب مثل هذه السيارة الفارهة ، ويدهن وجهه بالكريم الجميل ، وينام فى حجرة النوم الخرافية ، ويستحم فى هذا الحمام البللورى ، ويتعطر بهذه الرائحة التى تمكنك من ان تقتحم الصعب و ... و .

اسرع الاب بالعـــودة ليلحق الاعلانات ففى بعضها تظهر الفتيات الحسناوات ، وهو يحب الفتيات الحسناوات .

اسرعت الأم وراءه قادمة تحمل الشاى لتراقبه وهو ينظر بكل اعصاب بصره الى التليفزيون ، ليحلق فى الفتيـــات وفى اعلانات معينة .. وهى تعلم جيدا انه يحب مشـــاهدة الفتيات الحسناوات النحيلات « المصمصات » .

انتهت الاعلانات واطلت مذيعة نشرة الاخبار ، فحول الولد الكبير القناة ، ولم يعترض الاب ، فهـــو لا يريد أن يعرف شيئا عن أى شىء . عن اى دولة .. عن اى حادث .

فوجىء الجميع بأن البرامج التعليمية ما زالت فى قمة حماسها تشرح للطلبة علومهم ، فتركوها تشرح .

اخذ الاب يتابعها بعينيه فقط ، فهى لا تخصه ولكنه يشاهدها والسلام .. يجب ان يتفرج على اى شىء بينما يشرب الشاى وينفث الدخان ، ويمصمص شفتيه ويدفع لسانه ليبحث عن بقايا الطعام بين اسنانه .

دقت الساعة السابعة مساء ، فتذكر انه لم يصل اى فرض ، واقترب موعد صلاة العشاء . شعر فجاة بآلام فى ركبتيه فلم ينهض .

جاءه ولده الاوسط معاتبا :

ـ لقد كذبت علي يا أبي .

ـ لماذا يا ولدى ؟

ـ لقد سألتك حين قدمت الى القميص هل اعلن صاحبه عنه بالتليفزيون قلت نعم .

ـ هذا حق يا ولدى ، لقد رايت عنه اعلانات كثيرة .

ـ لكن زملائى لم يروا هذه الاعلانات وسخروا منى .

ـ ربما كانوا يذاكرون ولا يهتمون بالتليفزيون .

فضحك الولد مندهشا من سذاجة ابيه قائلا :

ـ انهم يأخذون يا ابى دروسا ولا يذاكرون .

ثم مضى الى حجرته .

دق جرس الباب . نهضت الأم وفتحت .. كان اخاها .

قالت : أهلا يا احمد .

وقال زوجها : اهلا يا احمد .. حولى القناة الثانية .

ـ لا أهلا ولا سهلا ، انتم لا تسألون على احد ، ولو مت لما تحركتم .

قالت أخته فى اهتمام وحنان : ما هذا الكلام يا احمد .. لا تقل هذا .. أمعقول هذا يا يوسف ؟

اجاب زوجها بذهن شارد : غير معقول .. اجلس يا احمد .

جلس احمد يسألهم عن أحوالهم وهم يردون مرة ، ومرات يغفلون .

كان التليفزيون فى هذه الاثناء يبذل جهده ليجذب اليه احمد . لكن عين احمد لا تستقر على شيء لأكثر من دقيقة ، وحتى راسه نفسه لا يستقر ، وعقله لا يتابع فكرة الى نهايتها ، ويتنقل بين عديد من الموضوعات سريعا ، لا يمسها الا مسا هينا ويتركها ليمس غيرها وهكذا . كل ما يسعده ويجذبه موضوع يصلح للضحك ، فهو مغرم بالضحك ، ويمكنه ان يضحك من اى شيء مهما كان حزينا ومأساويا.

وحين جذبه التليفزيون . التفت اليه واخذ يسخر من بضاعته . من الديكور والممثلين وسطحية الافكار ، ونظرة المذيع وجلسته والاخطاء الكثيرة فى المعلومات المقدمة وعدم مطابقة السلوكيات للواقع على الاطلاق .. الى غير ذلك حتى ضاق التليفزيون بهذا الشخص الذى يقلل من اهميته ، كما انه سيعكر صفو الاسرة وسيخرجهم عن طاعته ويشغلهم عنه ..

زاد من غيظه انه لا يستطيع التحكم فى الضيف الجديد ، لانه لم يستطع لا هو ولا اجهزة التليفزيون المنتشرة فى المدينة ان يتمكنوا من راس احمد ، ولم تركب له الازرار التليفزيونية لتوجيهه اليكترونيا.. فهو الآن خارج دائرتهم .. حر طليق كعصفور .. يجلس وقتما يشاء وينام وقتما يشاء ، ويسافر ويلعب ويجرى حينما يشاء ، ويفكر كيف يشاء ومتى يشاء .

لكن التليفزيون لم ييأس فلا بد ان يبهره ويجذبه ، قرر فجأة ان يقطع برامجه لأسباب فنية ، ويقدم بدلا منها استعراضا اجنبيا عامرا بالنساء والشباب والموسيقى والديكورات المبهرة ، والاضواء الصارخة الملونة ، فاهتم الجميع ما عدا أحمد .

جاء الابن الاوسط فسلم على خاله وسأل ابوه عن حل لمسألة صعبة من مسائل الجبر . قال له أبوه :

ـ الوقت ليس مناسبا . خالك موجود .

قال الابن : وهل خالى غريب !

صرخ الاب : عيب يا ولد .

فانبرى الخال : انا است غريبا .

قال الاب فى تحد وعيناه على التليفزيون :

ـ قلت ليس الآن .. يعنى ليس الان .

واحس احمد ان مشكلة توشك أن تنشأ بسببه ، وفى نفس الوقت قرر أن يرضى الطرفين : الابن والاب .

قال : تعال .. اسألنى عما تريد .

ادرك الاب ان المسألة ستطول ولن يتمكن من مشاهدة هذا الاستعراض المبهر .

قال بحدة : ولا انت تجيبه الآن .. وقت آخر .. هيا .

دخل الصبى فألقى الكتاب من قبيل العناد وعاد فجلس معهم .

تململ احمد ثم قال موجها حديثه لأخته :

ـ الم تعلمى بوصول اختك منذ اسبوع .

كانت الاخت مشدودة الى التليفزيون بخيوط حديدية ..

قال احمد بصوت عال : فكرية .. افيقى .

ـ ماذا ؟

ـ الم تعلمى بوصول اختك من الخارج مريضة .

اجابت بتثاقل : اعرف .

سألها : ولماذا لم تذهبى اليها ؟

قالت وهى توارى خجلها : مشاغل يا احمد .

رد بهدوء .. حاول ان يكبح جماح دهشته : اى مشاغل ؟

قالت : احك له يا يوسف .

لم يحك له يوسف فهو منهمك فى الاستعراض الراقص والراقصات .

هزته : يوسف .. يوسف .

لم يرد يوسف وبدا كانه ميت يجلس فى الكرسى مفتوح العينين.. ميت من نوع غريب وجديد .. ميت عصرى .

والتليفزيون ما يزال فى حيرة من امر الضيف .

انتهى الاستعراض فأجابهم : نعم .. ماذا .. لماذا .. ما لكم .

سأل احمد : الم تعلم بأن امينة وزوجها وصلا من الخارج لانها مريضة جدا .

قال وهو يشعل سيجارة فربما تخفى شيئا من ملامحه : نعم .. علمت .

سأله أحمد وكان نادرا ما يتابع موضوعا الى نهايته .

ـ ولماذا لم تذهب اليها ؟

الهمت سحب الدخان يوسف بعض الافكار ليرد بها فقال :

ـ الحق اننى مشغول جدا هذه الايام بالذات .. ولدينا عمل بالهيئة كثير .

وهنا مشاكل الاولاد ودروسهم و .. والحياة اصبحت وانت سيد العارفين صعبة جدا .

بدا على احمد انه صدق ما قيل .. فقال :

ـ عندما علمت انكم لم تذهبوا اليها جئت لأنبهكم فلا يجوز الا تذهبوا لزيارتها .

قال يوسف وهو يتنفس بملء رئتيه ، اذ احس بصدور العفو عنه، وانه يستطيع متابعة التليفزيون .

ـ الف سلامة .. سنذهب ان شاء الله . حولوا القناة .. التمثيلية .

اسرعت الأم السمينة النشيطة :

ـ لقد نسيناها فعلا .

قال أحمد : انها مملة .

كاد التليفزيون ينفجر غيظا من هذا الذى لا يعجبه شيء ، ولا يود أن يعيره اهتمامه ولو لدقائق ، وهو كفيل ان يعد له لوحة الازرار ويبثها فى راسه .

مضت التمثيلية تدق فى رءوسهم ، وجاء الابن الاكبر والطفلة الصغيرة . جرجرهما التليفزيون من حجرتهما ليتفرجا .

اخذوا جميعا يضحكون على أى شيء ، بمناسبة وبدون مناسبة ، وبعد المسلسل تناولوا العشاء فى نفس المكان ، وذهب أحمد وهم ملتصقون بالكراسى ، عيونهم مقيدة الى التليفزيون واجسادهم مستسلمة « ومحطوطة » .

الوقت يمضى وهم يمارسون هوايتهم فى التنقل بين القنوات ، والتليفزيون يصر على ان يتولى امرهم بنفسه .. يدفع هذا للضحك ويشير الى ذاك بالخوف ويعرض على الآخر ان يقوم الى دورة المياه من قبيل الرحمة قبل ان تنفجر مثانته .

فى نحو التاسعة نامت الطفلة فى مكانها ، دون أن ينتبه لها احد ، وحتى بعد ان انتبهوا لم يستطع احدهم النهوض لحملها الى سريرها فبقيت .

وبقوا الى ان انتهى الارسال فى جميع القنوات ، ولم تعد هناك صورة وانما مجرد جهاز كهربائى ، تشع منه ذبذبات ضوئية تصـدر صوتا مزعجا .. تش .. تش .

وحتى بعد ما انتهى الارسال لم تسمح لهم نفوسهم ولم يسمح لهم التليفزيون ان يقفلوه ، تمثل لهم خاطر مسيطر بانه من الممكن ان تطل عليهم من بين هذه الذبذبات صورة ممثل او راقصة او حتى جزء من مباراة فى كرة القدم او رجل بستة او سبعة مليون دولار .

ولماذا لا يحدث هذا ؟ ما الذى يمنع من ان يعود الارسال بعد ان يذهب المسئولون الى منازلهم ليرتاحوا حتى الصباح .

غير مستبعد ان يكون هنــــاك فيلم مرفوض مثلا ، او سـهرة تليفزيونية مهجورة .. تغضب لحالها فتكتم آلامها فى نفسها الى ان تحين الفرصة ، وعندما تتأكد فى مرة من غيابهم تنهض من قبرها او تخرج من علبها ، وتقفز الى جهاز الارسال ، وتفاجىء المشاهدين المخلصين من امثــال عائلة يوسف مهابة ، وتعرض نفسها دون ان يقدمها مذيع او مسئول .

لم يعد هناك شىء على الاطلاق بمستبعد ، على الاقل فى نظر هذه الاسرة ، وهى ليست اسرة شــاذة او غريبة ولا يعانى افرادها من امراض عقلية .. ابدا فانهم عاديون جدا وتقليديون .

كان عليهم ان يناموا . اخيرا .. واخيرا جدا وبعد طول صبر ومقاومة اطفأوا التليفزيون ، كانوا يخشون اذا هم اطفأوه ان يموت ولا يعود اليهم فى اليوم التالى ، فينتحر بعضهم ويضرب الباقى عن الطعام .. أخيرا اطفأوه فعم السكون ، وكأنهم كانوا آخر ناس فى الدنيا ايقاظ .. سكون .. سكون .

تبادلوا النظرات فى دهشة . احسوا انهم وحدهم الاحياء فى هذا العـالم ، اما جميع الخلق فنائمون منــذ سنوات او ميتون .. سكون .

بتثاقل نهضوا للنوم .

وما هى الا لحظات حتى غدا كل منهم جزءا من السرير ، جثة هامدة لا يشير الى ارتباطها بالدنيا الا الغطيط العالى من الجسد المنهك .

اطمئن التليفزيون الى انهم جميعا قد ناموا ، فهب من رقدته المهيبة التى يكمن فيها كل يوم كأبى الهول ، ثم اخرج قوائمه من تحت صندوقه وبسطها فقام عليها ، صارت تمتد بشكل خرافى . وكبرت راسه وتضخمت جوانبه ولمعت شاشته .

تجاوزت اطرافه المـكان الواحـد وتفرعت فى الممرات والمـدخل والردهة ، ملأ التليفزيون المكان كله حتى لم يعد فى الشقة غيره .

بدا جولته الليلية يجوس فى الممرات والحجرات . تحسس رءوس النائمين .. نعم .. الكل نام وغرق فى بحر النوم تماما .. ضغط على ازرار الاحلام وشرع يتحدث اليهم فى همس عال كالفحيح . يخرج صوته من كل جزء فيه ومن كل طرف لا من الصدر وحده :

ـ احلموا .. احلموا بى .. انا الاهكم الاعلى فاعبدونى .. امنحونى كل حياتكم ، امنحكم الجمال واللذة والراحة .

وقبل ان يكمل وصيته اليهم ، بلغتـــه من فم يوسف اصوات غامضة بلغات عديدة وكلمات ناقصة أوضح مافيها قوله : كان يجب ان يطلقها ، لكنه تخاذل .

اما الولد الاكبر فكان يقول فى كلمات متدفقة : ان مسدسه سريع الطلقات لم يمهلهم حتى ..

وكانت الصغيرة تقول : اين باك بتاعى وتقول لها امها : باك ليس ملكك وحدك . باك لنا جميعا .

انشغل الـكل بالاحلام .. تراءت لـكل منهم امنياته التليفزيونية واستعاد بعضهم شيئا مما راى خلال اليوم فى التليفزيون .

وقبل الفجر استدار العملاق بكل ثقة وهدوء ، للم اطرافه وتكوم . صعد الى منبره وربض . بدا يخور كالثور ويهبط ، يخور ويهبط ، ويتضاءل حجمه كالبالونة المثقــوبة ، يخور ويتضاءل الى ان طلع النهار ، فاصبح على هيئته العادية الوديعة المهذبة التى يراه الناس عليها ، وكأنه لم يبرح مكانه لحظة ، ولم يشغل احدا او ينطق حرفا .

استيقظ الرجل فى نحو العاشرة ، اسرع فزعا يدس جسده فى الملابس . اى ملابس .. ترك القوم كلهم غرقى فى عالمهم ، يتعـالى

فطيطهم من الحجرات مختلف النغمات ، كأنهم يعزفون هذا الفطيط تبعا لنوتة موسيقية ، وبقيادة قائد اوركسترالى ماهر .

هرب من رائحة النوم المتعفنة ، وقفز هابطا السلم الى عمله .

بلغ مكتبه فاذا لجنة الجرد تنفث الغضب وتتشبث بالصبر وقد اوشكت على الرحيل ، لتكتب تقريرها عن حالة الخزينة .

سألوه : ماذا فعلت ؟

ـ سألهم : فيم ؟

سألوه : فى العجز .

ففر فاه : هه .

سألوه ثائرين : العجز .

قال متلفتا : عجز .. اى عجز .

بحلقوا فيه . وقع من طوله . تلقاه كرسيه . وضع راسه فى كفيه .

اشتياق



اشتياق

عندما تنادى حفيدها الاصغر :

ـ يا شالم .. يا ولد يا شالم .

يفرق اخوته فى بحر هادر من الضحك .. يتبعثرون فى كل اتجاه .. اجمل ما فى الدنيا ان يسمعوا جدتهم تنادى أخاهم الاصفر بفمها القطنى الفارغ ، ككيس نقود قديم شدوا خيطه .

العجوز وحدها فى الدار . تبتسم فى أسى . تتكىء على سنيها السبعين .. تتأمل خيمة الصمت تنسدل على الجدران . تشمل الكون كله ..

الكآبة وغياب الانفاس تنسج خيوط البرد . تنهال اكوام الثلج على كل ركن . فى جو الوحدة والشيخوخة تنبت اعشاب الغربة والوحشة . لا يرغب فيك احد . تلقى على قارعة طريق . من يسأل عنك . هذا زمن الفرد المتعجل يستهدف نفسه .

لم يبق من اهلها غير ابنتها وزوج ابنتها القــــاضى واولادهما . يسكنون الدور الثامن بعمارة فى نهاية الشارع العملاق .. بينهمـــا نصف ميل .

وحدها تعيش . بلا انيس الا قطة ضامرة مثلها تماما ـ الوحدة والشيخوخة شيبا صباها .

منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم لهفا .. لكنها ..

لكنها .. لن تترك بيتها الذى ضم زوجها حلما جميلا ملونا .. ما زال يشع حتى الآن دفئا تؤججه الذكريات .. انفاسه فيه .. شريك الايام الصعبة .. لا تنسينا الايام رفيق الغربة .. زميل الدرب المجهول .

زوج ابنتها قاض مجرب . يقول .. صدقت كلماته ..

– حتى لو ضحكت فى الوجه الايام وتبسم للانسان وجه الزمن العابس وتغطينا بالمال بالجاه . لا يمكن ان ننسى زميلا فى ثلاثة . الجيش والسجن والغربة .

احفادى . انفاس جدكم فى بيتى .. لا اتركه ..

صورته مرسومة على كل جدار . هذه نظراته ترقبنى . ترشدنى. تسألنى . . يده تسندنى حين أهم بنقل الخطوات .. اسمع صوته وارد عليه . هل يملك لسانى الا يرد عليه ومن قبله قلبى . لم يغيبه التراب ، فالتراب لا يخفى الاحباب . لم يطوه القبر . ولا تبعده السنون الخمس .

الح عليها زوج ابنتها القاضى كى تسكن معهم :

– ورائحة المرحوم !

– وكيف نطمئن عليك ؟

– تعالوا .

– القضايا بالليل والنهار .

– ادرسها عندى .

– مرتبط بالمراجع والكتب وكلها بالمنزل .

– دع ابنتى تزورنى والاولاد .

– مرتبطة بى .

– تمنع ابنتى عنى اذن .. تحرمنى منها .

– لا اقصد .. لكنها لازمة لتحضير ملفاتى ومذكراتى وترتيب المكتب ومطالب الاولاد .

– ماذا تعنى ؟

– ارى انك تقبلين يا امى لنفسك الارتباط بزوجك الميت ، ولا تقبلين لابنتك الارتباط بزوجها الحى .. والحى كما تعلمين .

– احق من الميت .. اليس كذلك ؟

على نفسها تحاملت العجوز ونهضت .. الح زوج ابنتها عليها بالبقاء . قدم الاسف وابدى الاعتذار . تركتها ابنتها تخرج . تعرف ان اصرار امها اقوى من الحديد .. وعنادها بلا حدود . واذا مسها تيار الغضب فلن ينقذها من قبضته احد .

بعد يومين زارها القاضى والاولاد . معهم كل ما يلزم لاقامة يوم جمعة كامل فى شمس دارها التى لا تعرف دارهم .

وبعدها ..

مر اسبوع .. اسبوعان ولا خبر . لعل المانع خير .. اليوم هو الجمعة .. منذ الصباح وقلبها يأكلها عليهم . لو كان فى نيتهم الحضور . لحضروا منذ الصباح .. الوقت الآن بعد العصر .

لا تستطيع الجدة العجوز مقاومة الرغبة الجياشة فى رؤيتهم . لحظتها تحس بالانتعاش . تحس بدم الصبا يجرى فى عروقها المتهرئة .

هل تذهب لتأخذ احفادها فى احضانها ؟ .. لا .. هل تترك المرحوم ؟ .. لا .. ما العمل اذن ؟ .. يا لها من حيرة ؟ .. الافضل ان تذهب . الالم ينخر فى ركبتيها كالنمل يمتص رحيق العافية .. ان كانت هناك عافية .

تلفتت الى الجدران الذاهلة فى غباء واقفلت الشقة فى اناة . استدار جسدها المقوس فى حركة واهنة . نزلت السلم واحدة واحدة . طفل صغير . يعود الانسان كما كان . تاتا . يدها على السور . درجة وتقف . درجة اخرى وتقف .

هبطت الادوار الثلاثة حتى الباب الخارجى . الباب يبدو من الداخل كأنه ثغرة كبيرة فى كهف يفضى الى نور الشارع . تقطعت انفاسها .

الشارع عملاق مهيب . الحركة فيه كيوم النشور .. سيارات تتسابق كأنها تهرب من النار .. الناس يتدافعون بلا وعى .. ينطلقون كالآلات بلا بصيرة . كعربة دون قائد .

ابواق تتعالى تصم الآذان . التراب والدخان . الشخص يقابل اخاه لا يعرفه .. عيناه فى عينيه ولا يعرفه .

خطواتها وجلة ، وقبل ان تنقلها تنظر الى اليمين ثم تنظر الى اليسار . الشارع فى المدينة الكبيرة غول يأكل الاطفال والعجائز .

ترتعد عند كل بوق . رمح يشق الجسد الهش . يهتز هزة الموت .

وصلت عند منتصف الطريق . استدارت ترنو لبيتها كأنها ستفارقه . كأنهم سيخطفونه اذا واصلت طريقها .. بدا زوجها يلوح لها ..

« هذا الشارع كان ايام شبابى خاليا من المارة او يكاد ، والحركة فيه ضئيلة .. سيارتان او ثلاث . تسير فيه معصوب العينين فلا تخاف ، تمشى ذاهلا عن احوالك لا يهمك ، تحمل اكياسا وصناديق تحجب عنك الرؤية . لا بأس ، تمشى وامامك اولادك تسوقهم كقطيع الغنم . لا خوف عليهم .. اما الآن فانت لا تأمن على نفسك برغم الشباب » .

بلغت العجوز باب العمارة . انبأها البواب بانقطاع الكهرباء . جلست على مضض تنتظر . لكن الاولاد يتقافزون فى قلبها . نهضت . صعدت السلم . يدها على الجدار .. درجة وتقف .. درجة اخرى وتقف . وفى كل دور ترتاح .. تلتقط الانفاس المقطوعة.

بلغت شقتهم . ضربت الجرس ، لم تسمع له صوتا جلست منهارة على الارض .. دقت الباب بالمداس . لا مجيب . دقته . دقته . الشقة مهجورة .. انتظرت وانتظرت ثم هبطت الدرجات من جديد .

سألت البواب . اكد لها البواب انهم فوق . فى الشقة المقابلة يحتفلون بعيد ميلاد ابن جارهم الطبيب .

اغرورقت عيناها بالدمع . « عيد ميلاد الصغير . وانا اعانى من الوحشة ليل نهار » .

استدارت لتغادر العمارة . قفزت فى صدر البواب مشاعر الانسان . رجاها ان تبقى حتى يدعوهم اليها . جلست على اريكته تلتقط الباقى من الانفاس .. صعد البواب الطيب ثمانية ادوار ــ ابلغ القاضى بحضور جدة الاولاد .

هبطوا جميعا فى عجلة اليها .. كانت تتجه خارج العمارة .

ــ امى .. امى ..

نظرت اليهم بعيون عاتبة .. كانت العيون تقول :

ــ الحى ابقى من الميت .. اليس كذلك !

تهدل جسدها وانهار .. حملوها الى شقتهم .. ودموعهم تتساقط على وجهها فتطفىء نارها .

قرية فوق الأرض



قرية فوق الأرض

يجب ..

الا يعطى هذه المجنونة الفرصة لمزيد من النقاش الهستيرى . انها تحب اللجاج بشكل خرافى . طول النهار « شقار ونقار » مع اى انسان يلقيه حظه الاسود فى طريقها .. واسوأ المخلوقات حظا هم اولادها . لا تكف عن التحرش بهم بمناسبة وبلا مناسبة ، ولا يسلم من هذا رضيعها الذى لم يتجاوز ستة اشهر .

تخلق عدة مشاكل من مشكلة واحدة .. اذا مر اى شخص فى الحارة ولو خطأ تقبض عليه فورا ، كأن حشرة دخلت بيت العنكبوت ولا تتخلى عنه الا بعد ان يقول « حقى برقبتى » .

ويذهب وهو يلعن اليوم الذى حمله الى هناك ..

امرأة مستفزة دائما .. لقد تحملها كثيرا واشتكى منها لاهلها فى بداية حياتهما الزوجية ، لكن أهلها كانوا يعرفون داءها ، وما ان حملها عنهم حتى التقطوا انفاسهم ، وحمدوا الله ان مخلوقا ما رضى ان يتلقى هذه المصيبة ، وكان سليم هو الذى حملها .. انه كان ظلوما جهولا .

هم انفسهم كانوا يشفقون عليه ، وطالما رثوا لحاله ، لكنها ابنتهم ولحمهم ، وسليم طيب ، وليس مجرد طيب ، بل هو طيب الى درجة تفيظ وتقلق ، طيب الى درجة البرود ، وهذا هو — فى رايهم — الشخص المثالى الذى كانوا يتمنونه لها ، وان تمنى بعضهم لها أن تقع فى شخص مشتعل المزاج ، حاد الطبع ، سريع الغضب اذا ناداها ولم ترد عليه قام عليها فسواها بالارض ، لا يقول لها كلمة الا ويسبقها كفه على صفحة وجهها .

كان من الممكن أن يكون هذا انسب وخاصة فى نظر بعض الخبراء منهم ، المحنكين فى الحياة ، المتمرسين بطباع البشر العجيبة .

لكن اشفاقا عليها ، لانها ابنتهم .. لحمهم وعرضهم . الما يؤلمهم ودموعها تدمى قلوبهم ، لذلك اختاروا لها شخصا من النوع الاول النوع الطيب جدا لدرجة البرود ، وسليم هو زعيم هذا النوع وابرز اعلامه ، لدرجة انه يكاد يكون بلا شخصية .

ولو كانت له شخصية فلن يسمح لزوجته « الولية القرشانة ام عياله » أن تتصرف معه على هذا النحو الشرس .

وطيبة سليم هى نفسها سبب معظم مشاكله مع زوجته . هى نار حامية وهو بارد كالثلج .. البرود يتفجر من حركة اصابعه الواهنة ولفتاته الكسول ، وصوته الرخو ، « يطهق » بلد ويضطرها أن تمل الحياة كلها ، وتبرح مكانا هو فيه .

وبسبب كسله هذا فهو لا ينتظم فى عمله عند فلان أو علان . فى ارض العمدة يعمل يومين ، وسرعان ما يتركها ويذهب « لامينة » خليفة برفع الطوب ، يترك هذا كله ليعمل فى « تعطين الكتان » .

ليست له صنعة ثابتة ولا قرش ثابت ولا معنى ثابت .

الوقت لديه جلباب فضفاض ودائما صامت . كأن صمته يلذ له ، أحيانا يثور على طباعه وعلى نفسه ، لماذا لا يكون شيئا ما ، ولماذا لا يفاجىء الناس بحركة غريبة تبهرهم فيتحدثون عن هذا الساكت « السهن » غير السهل .

قرر اليوم الا يعطى « الولية القرشانة أم عياله » فرصة لمزيد من الصراخ ووجع الدماغ .

العصر قال « الله أكبر » ، اذن ليذهب الى المسجد فيصلى « ويروق » وانشا الله « تولع » .

بلغ المسجد . دخل بيت الادب . تطهر . استدار للميضاة .. وقف فى الردهة الصغيرة بين بيت الادب والميضاة ، يشمر اكمامه ويبسمل ويحوقل ويتشهد ويصلى على رسول الله .. لكنه توقف فجأة . جذب انتباهه الذى لا ينجذب ابدا قفل معلق على باب صغير . قفل ضخم، أسود لونه من الصدأ ..

قالت له نفسه : ما هذا القفل ؟

رد عليها : مالنا الآن ومال القفل .. قدمنا للصلاة .

قالت له نفسه : هذا القفل غريب الشكل وهذه اول مرة اراه هنا ..

رد عليها : اول مرة او آخر مرة .. مالنا نحن .. جئنا هنا للصلاة .

قالت له : لابد ان اعرف .

القفل كتلة حديدية . سليم يرقبه ولا يملك لنفسه فكاكا .. اجراس الفضول تدق داخل برجه ، وهو حائر .

قالت له نفسه : انه باب المئذنة . افتح القفل واصعد . تفرج على الدنيا من خلال المئذنة . الى متى ستظل فى الذيل .. كن ايجابيا مرة . حدق فى القفل . انقض عليه . اعتصره بأصابعه المعروقة .. ففر القفل فاه . انحلت عقدته وفتح الباب .

باب المئذنة الذى لا يفتح لغير الشيخ رجب فتح لك يا سليم .. ليس غيركما فى البلد .

بحلق فى يديه وفى القفل وفى الباب ، رقصت اعماقه كأنه فتح باب الجنة .

قال لنفسه : ياه .. انا داهية كبيرة ولا أعلم .

نسى كل شىء فى الدنيا واستعدت مشاعره لاستقبال السعادة والمتعة . تأمل اولى درجات السلم ثم تطلع الى جدران الممر المخنوق ..

فجأة دخلت عليه « الولية القرشانة » .. وقفت بالباب .. قالت له :

ــ يا خيبتك .. ماذا تفعل هنا .. الكل يسعون من اجل الرزق وانت ؟

ــ كفى يا امرأة .

ــ تحرك يا رجل .

ــ احمدى الله واصبرى .

تقدمت نفسه بجسارة ، وابعدت طيف امراته او عفريتها كمـا يحب أن يسميه ودفعته الى الداخل .

المدخل مخنوق والسلم كثير الدرجات ، كيف يجتازه الشيخ رجب وهو كالخرتيت حجما وملامح .

صعد الدرجات ، كأنه يهبط فى سرداب سرى ، جدرانه ملتفة تدور وتدور ، بصعوبة اقنع نفسه انه لا يخوض فى مصران او امعاء .

تراقص السؤال الحائر امام عقله كلما « انحشر » فى منعطف .

— كيف اذن يمر من هنا موكب الشيخ رجب بشحمه المتراكم ولحمه المكدس !

بلغ السطح . انكشفت السماء بكل اتساعها .. ليس هناك مخلوق واحد على الارض الآن اعلى منه . رنا اليه الافق فى دهشة : ما الذى اتى بك الى هنا ؟

الدنيا كلها امامه ، خطوط فى كفه .. نسمات طرية نقيـة تسربت الى انفه ونفذت الى صدره .. تنفس بملء رئتيه وسقى اعماقه الظمأى .. احس بالبهجة لانه ابتعد عن دخان الفم .

— ها هى الترعة تلمع مياهها مع تقلب فتات الموج ، ها هو القطار يجتاز حدودنا من بعيد البعيـد ، فى اقصى امتداد البصر كثعبان أسود . يتسلل من بين الاشجار الباسقة ، لا يدخل قريتنا ولا يرضى أن يقيم بها لحظات .

فكر أن يؤذن للصلاة ، لكنه تذكر ان الشيخ رجب اذن لها .

— ماذا لو ادعوهم مرة اخرى .. فربما هناك من لم يسمع .
هذا افضل فعلا . ادعو مرة اخرى للصلاة ، وكله بثوابه .

وهم .. سحب انفاسه وفغر فاه الى اقصى ما يستطيع ، وضع راحته على صدغه . شيء الهى اوقفه ، اقنع نفسه أن ثورة اهل البلد ستكون عليه شديدة لانه عبث بالمقدسات .

حدق فى البيوت .. كلها بيوت مسكينة . اغنى الناس مسكين وافقر الناس مسكين .

تسرب اليه احساس بالشفقة عليهم .. البيوت من طين .. كل الاسقف من الحطب والقش .. تكدست فوقها الاتربة وجاء دخان الافران و « الكوانين » فسودها ، كل بيوت القرية سوداء حتى بيت العمدة وشيخ البلد .

القرية كلها عبارة عن بقعة سوداء من الفقر والغلب والضـآلة والانكماش .

من هنا .. من فوق المئذنة بدت له قريته صغيرة . صغيرة جدا فلماذا وهو فى داخلها يشـعر انها الدنيا وام الدنيا واصل الخير ومصدر كل غذاء البندر .

ناس غلابة . طيبين ، تفزعك السنتهم ، لكنهم طيبون ، وكل املهم فى الدنيا عشاء ساخن ، واقصى امنيات الام جلباب لهـا وصندل لابنها .

وآخر ما يبتغيه الرجل حرث ارضه وسلامة بهيمته .. العمدة ورجاله يمشون على الارض فى تيه وخيلاء ، لكنهم مساكين برغم هذا التيه والخيـلاء .. يراهم جميعا من فوق المئـذنة صـغارا كالدود .

لديه الحق اذن فى انه لا يتوتر مع احد ولا يتشاجر .. القرية كلها صغيرة ، كلها على بعضها بسكانها وبيوتهم وعفشهم لا يملأون قطارا واحدا .

لص . لص ..

لمح لصا يحمل آنية ، يعدو فوق الاسطح .. من تراه ! سقط بين الحطب فى بيت الحاج سلامة .. لم يعرف بالضبط من أين صعد ؟ .. هام جدا أن يعرف من اين صعد ؟ ..

ومع ذلك لا تشغل بالك .. ربما كان اللص هو ابن الحاج سلامة وربما كان صعوده من دار عمته .. فى قريتنا السارق اخو المسروق .. والناهب عم المنهوب .

هام فى الافق يرنو للشمس التى تستعد للرحيل .. للسيارات التى تجرى على الطريق السريع ، تلتمع اجسامها حين تسقط عليها

اشعة الشمس ، النهر الكبير هناك .. كل ما هو كبير هنــاك . تراه فقط من فوق المئذنة .. سرد لفترة .

عادت نظراته ترنو للقرية المحشوة بالكلاب ، والاولاد الذين لا يجدون غير التراب يلهون به .

بدات ألسنة الدخان تتلوى فوق الاسطح الحطبية الدكناء .

بنت هناك تركت جرتها عند الطلمبة ، ومضت خلف دوار العمدة حركتها السوداء تبدو من أعلى برغم ضياع النور ، برز لها جســد من باب الدوار الخلفى . شكرى ابن العمدة ، فى حجم ابيه ، لكن البنت ككل البنات . رفيعة العود وتلبس السواد . طرحتها السوداء تدور حول الوجه المضىء كالسوار .

لا . ليس شكرى . انه العمدة نفسه ، يتقلب فى جسد متدحرج كأربعة عجول فى زكيبة . استدار وضم على الفتاة ذراعيه .

اين زوجته ، لابد ان ابلغها ، زوجها المسئول عن القرية ، يعابث فتاة لا اعرفها .

ــ احقا لا تعرفها .

ــ اقسم انى لا اعرفها .

ــ صفها لى .

ــ رفيعة القوام وترتدى السواد مضيئة الوجه كبدر .

ــ أهذا كل ما هناك !

ــ اجل .

ــ واين كنت انت ؟

ــ انا . انا كنت فوق المئذنة .

ــ انت كاذب .. غير مسموح لانسان ان يقترب حتى من باب المئــذنة .

تخلى فجأة عن افكاره السابحة ، فى اسئلة زوج العمدة . حين لمح شيخا يجرى فى اثر شبح ، اختفيا ثم عادا للظهور .

من خلال الضوء الباهت استطاع ان يتعرف على شكرى وزكيــة الخادمة .. آه زكية الخادمة .. هكذا اذن .

لكم تمنت زوجته ان تعمل عند العمدة ، فهناك خير وفير ورزق فى غير نظام وبلا صاحب .. لكم تمنت ! .. ماذا لو قال للعمدة عما جرى من زكية حتى يطردها ، فتحل زوجته محلها .. سيسأله العمدة .

ــ وكيف عرفت ؟

ــ رايتهما .

ــ اين كنت ؟

ــ فوق المئذنة .

ــ كاذب ..

حل الظلام وتعذرت الرؤية .. على أية حال لقــد راى ما لا عين رات ولا خطر على قلب بشر .

اتفق مع نفسه على مداومة الزيارة . احس انه اغتسل وتطهر .

هبط الدرجات واعاد القفل الى مكانه ، قبل ان تضبطه عين .. فالنظرة وحدها تبنى خبرا وحكاية .

مبروك



مبروك

من باب المطحن المقام على الطريق الزراعى خارج المدينة ، خرج سالم منحنى القـامة يسحب نظراته على الارض . يرى قـدميه الحافيتين وهما ينقلان الخطوات على تراب الطريق .. تشبثت يداه من فوق راسه بجوال كبير من الدقيق يحمله على ظهره .. تقدم من عربته الكارو .. القى الجوال عليها بحركة متمرسة . تعـود عليها .. أحكم وضع الجوال بين الجوالات التى سبقته وناء بها حمل العربة .

كان هذا آخر جوال فى هذا الدور . بل وفى جميع أدوار اليوم .. اليوم بالذات ستنتهى ادواره بعد الظهر ، ولن تستمر كما هى العادة حتى المساء .

اليوم غير كل الايام .. سوف يعود الى جماعته مبكرا ليطمئن عليها .

كان الوقت ظهرا . والشمس فى كبد السـمـاء ، تعـلو كل الرءوس .. تلهبها بحرارتها الشديدة ، وتملأ الدنيا بنورها الالهى .. تنفذ الشمس فى كل شىء .

لا تستطيع العيون فى مثل هذه اللحظات أن تحملق فيها أو ترنو اليها .. ستمضى الايام وستظل الشمس دائمـا فى القمـة من مخلوقات الله ..

سحب سالم من أمام الحصان كيس البرسيم . وضعه الى جواره على العربة ..

صعد اليها .. طرقع سوطه فى الهواء دون أن يمس الحصان قائلا ــ على الله يا مبروك .

لم يكن مبروك فى حاجة الى طرقعة السوط ليتحرك .. ولم

يكن مبروك فى حاجة الى ان يقول له صاحبه : على الله يا مبروك .. ليتحرك فهو يعلم تمام العلم ان صاحبه حين يسحب من أمامه كيس البرسيم أو التبن فعليه أن يستعد للرحيل ..

وهو يفهم فى هذه اللحظة تمام الفهم ان وقت الاكل والراحة قد ولى ، وجاء وقت العمل .

يشد الحصان ساقيه ويرفع راسه .. يدفع رقبته الى الامام فى عزم وعصبية ليتمكن من جر حمله .. يجذب العربة فى خطوات متحفزة ..

انه قوى وقادر ومخلص لعمله .. ولكنه دائما ومن قبيل الحرص يحشد كل طاقاته واعصابه ليجر العربة .. خشية ان يكون الحمل اثقل مما توقع .. لان ذلك اذا حدث ـ لا قدر الله ـ واستهان بحمله فربما تسوء الأمور ، فتزل قدماه وتنكسر ساقه وتضيع كرامته فى هذا السقوط .. لا .. والف مرة لا .. انه يدرك هذه المسائل ويعرف الى اى مدى هى مهينة ومشينة .

أما صاحبه فيقدر فيه هذه المفهومية وهذه الجدعنة .. ولا يبخل عليه بالطعام والشراب والحمام اللذيذ فجر كل يوم فى النهر ، يدعك له ظهره وجسمه كله بالماء والصابون والليفة .. ليفة له وحده .. يراه صاحبه جوادا ولا كل الجياد ورجلا ولا كل الرجال .

كان على مبروك أن يجر هذا الحمل عدة مرات فى اليوم من شروقها حتى غروبها ، من المطحن خارج المدينة الى التجار والافراد داخلها .. مسافة تزيد على ثلاثة كيلو مترات .

يذهب الى المطحن خاليا ليعود محملا بما يزيد على عشرين جوالا كبيرا من الدقيق ، حتى يتحول لونه البنى القاتم الى الابيض الناصع .

ابدا لا يتبرم .. لا يسخط على هذه الحياة ، كما يفعل بعض البنى آدمين ..

يسبون الناس والقدر ويلعنون كل شىء ويشتكون لطوب الارض.. لكنه راض تماما .

ومقتنع بأن هذا الدقيق الذى يحمله اكل عيش للناس واه .

ولكى يتخلص من لون الدقيق يهز جسده بشدة عدة مرات ، او يتقلب بعد الشغل على رمال الجسر قرب شريط السكة الحديد وبعد أن ينفض عن جسده ذرات الدقيق .. ويحس ان وسامته قد عادت اليه ، يمر امام الحاج متولى فى دكانه . ليلقى نظرة على فرسته ويتلقى منها مثلها .. وتمتد اللذة فى جسده .. تنتشر دفئا وبهجة .. لكنه يسأل نفسه بعد أن يتركها :

ـ لماذا لا تعمل مثله فرسة الحاج متولى ؟

وتأخذه الدهشة لبرنامج حياتها .. طول النهار تأكل بجوار الحاج ، وطول الليل تنام . هذا كل عملها .. ناس لهم حظ وناس لا حظ لهم .. لكنها لذيذة .

صوت صهيلها يتسرب الى كل كيانه..هو متأكد انها تناديه ، ولكنه لا يملك الاستجابة لها والفراغ لامورها الكثيرة .. فى عنقه مسئوليات واعمال لا تنتهى ، ويأمل بينه وبين نفسه اذا ـ ان شاء الله وبدون مقاطعة ـ فرغ من العمل ، فسوف يقضى اليوم كله الى جوارها ، يستحلب حنانها ، ويستمتع برقتها وحلاوة نظراتها .. من غيرها جدير بحبه ؟

اليوم على ما يبدو ستسنح الفرصة ليحقق ما يريد ..
لقد أخبره سالم بأن العمل اليوم سيكون نصف يوم فقط .. سيذهب سالم ليطمئن على جماعته ، وسيذهب مبروك ليطمئن على جماعته .

صحيح ان سالم صاحب العربة يشفق عليه ويحبه كابنه واكثر الا ان الشغل شغل .

ولقمة العيش سيف مسلط على العباد .. ولا تعرف يا امه ارحمينى .

مهما بلغت محبة سالم لمبروك فان محبته واهتمامه بلقمة العيش .. اكثر ..

والمقصود .. ان مبروك يذهب الى المطحن محملا ويعود محملا ..

يذهب الى المطحن فارغا من الدقيق ، ولكنه محمل بجماعات من البشر ، رجالا ونساء واطفالا يحملون الاكياس والقفف والاوانى مملوءة بالذرة والقمح والشعير والحلبة لطحنها .. وفى العودة يحمل مبروك جوالات الدقيق وهى حمولته العادية فى غالب الاحيان .. وربما ينقل فيما بينهما أثاثا لاسرة صغيرة ، أو لشاب اعزب ، أو نصف الف طوبة حمراء من الأمينة القائمة فى سكة المطحن الى داخل المدينة ، اما اظرف الحمولات طرا لديه فهى حمولة الخضروات وبالذات الكرنب .

ومبروك راض بكل ما يفعله صاحبه حتى لو كوى ظهره بسياطه ويكون اكثر رضا حين يمر صاحبه على رقبته بيده الحانية . فتمتص كل ما يدب فى اعضائه من الخور والنصب .

لكن حين يقبله صاحبه فهذه أسعد اللحظات .. عندها تختلط فى نفسه المشاعر الحلوة .

الحب والفخر والشكر .. ساعتها تسرى فى عروقه دغدغة مريحة تسره .. فيغمض عينيه ويستسلم كالمراة المنتشية تتمنى المزيد .

لا يخفى على مبروك ما يجرى هذه الايام ، وهو ليس صغيرا أو ساذجا أو متبلدا غبيا ، وهو أيضا ليس حمارا حتى يغفل عن حال صاحبه سالم ، فهو يعرف ويحس بكل ما يجرى لسالم .. كان الله فى عونه .

منذ أيام وعينا سالم ترسلان من النظرات الساهمة ما يفضح قلبه الشارد ونفسه القلقة ، واليوم بالذات تبدو حركاته غير مستقرة وكلماته مبعثرة وقدماه تتعثران فى لا شىء .

ولا يتحقق له بعض الهدوء والاستقرار الا اذا جمع شتات صدره واقتلع منه تنهيدة ساخنة .

تشى بما فى جنباته من التوتر المؤلم والقلق الموجع .. انه ولا شك اضطراب النفس من أجل عزيز ، أو من أجل المصير .. فلا يقلق مسيرة الانسان فى دربه الطويل الا ان يتعرض مصيره لتهديد ما .. المصير .. دائما يفكر ابناء البشر فى المصير .

لا يهدأون مثلنا ويفكرون فيما تمضغه الاسنان ، وتحمله الظهور وترنو اليه العيون ..

هذا فيه الكفاية .. كان الله فى عون سالم ..

يتنهد سالم ثم يقول :

ـ استر يارب .. انا عبدك وراض بكل شىء .

ثم يتولاه صمت طويل يذوب فيه وهو ساهم ، يفيق بعد فترة ليقول : انت الكريم .

العربة تسير بغير قائد أو تكاد .. سالم لا يرى الطريق ولا ينتبه الى منحنياته أو قسماته .. الحصان يتجه بامانة واخلاص فى طريقه الى المدينة ، وكأنه يدرك ما الم بصاحبه من الالم .. يبالغ فى سرعته وخفته .. لا ينظر الى كل حصان يمر به .. ذاهل عن كل شىء عدا صاحبه والعربة والطريق .. العبء كله يقع على عاتقه وحده .. تندفع خطواته بأمانة تنهب الطريق وتطويه .. وسالم فوق العربة لا يبدو لناظريه شىء غير رأس الحصان ترتفع وتنخفض مع خطواته الراقصة المنتظمة .. رأس الحصان تميل ناحية الشمال قليلا كأنه يود الاستماع لتأوهات يحس ان قلب صاحبه يغلى بها .

عين الحصان تبرق وكأنها تسأل سالم عما حدث ، أو ما يحدث .. تود ان تقول له : مالك .. ولا يهمك . معاك ربنا ومعاك مبروك .. احك لى .. الست صديقك .. لابد للانسان فى حياته من صديق.. ان لم يفعل شيئا فيكفى أن يرفع عن كاهل الانسان عبء أسراره ، ويمتص متاعبه ولو بالاستماع فقط .

نظر سالم الى الحصان وهام فى اثر تفكيره . وعيناه لا تريان الا ما يفكر فيه .. هل يا ترى يمكن أن يفهم الحيوان ما يعانيه الانسان .. ويرد على نفسه : نعم يفهم وبالذات مبروك .. حصان جدع .

ويهدأ راسه من الفكر المشتعل حين يخرج احشاءه فى تنهيدة يقتلعها من صدره .

كأنها شجرة تجتث من الارض بجذورها .

— ادع لها يا مبروك يابو القلب الابيض .. زينب ستلد اليوم .. ادع لها ان تقوم بالسلامة ..

زادت هزات راس الحصـــان ، وككل انسان يفهم ما يحب ان يفهم . فهم سالم ان معنى ذلك .. نعم ستقوم زينب بالســـلامة ان شاء الله .

انساب سالم مع مجرى ذكرياته .. لونها يبدو لعينيه غريبا بين البنفسجي والاسود ، طعمها فى شفتيه سائل ذابت فيه قطعتان من سكر وملح .. امتزجا مرا بحلو .. فلا عرف طعم هذا ولا ادرك طعم ذاك .

اخذ يقلب ذكرياته كمن يقلب فى جمر ، ليزداد اشتعال النار ويحمى اوارها . الذكريات دخان لاحداث مضت .. لكن الانسان يحب ان يتذكرها مهما كانت بالغة السوء .. ويظن احيانا انه قد خلعها من صدره ، لكنه يصبح فريستها فى كل حين .

يحاول أن يتخلص من سنينه الماضيات ، فلا يستطيع .. تصبح ذيل الانسان الذى لم يخلق له فى جسمه ، فخلق له فى نفسه .

لقد بقيت زوجته زينب سبع سنوات دون حمل . رغم انه دار بها وبنفسه من قبلهاعلى كل الاطباء حتى اطباء القاهرة .. ولجأ الى كل الوصفات البلدية وغير البلدية .

فلم يفلح ، حتى اذن الله بعد تمام اليأس واكتمال حلقاته حول روحهما .. فحملت فى العام الماضى ، ووضعت ولدا بهى الطلعة ، مشرق الملامح .. وضاء الجبين .

هكذا قالت الذكريات وقال سالم :

— كان نسخة منى .. وكانت عيناه تبرقان .. سميته احمد .. كنت اريده أن يكون رجلا .. رجلا اكبر منى .. كنت انوى أن اعلمه صنعتى .. انها ليست سهلة كما يعتقد البعض .. وليس كل من اوتى القوة يستطيع ان يحمل جوالا ، ان حمله فن ووضعه فن وضبطه على الظهر فن .. ولا يتأتى ذلك الا بالتمرس الطويل .. بالخبرة والعرق .. آه (استرسل فى الاشجان التى تفوح من الذكريات) .

كنت اريد ان يساعدنى فى عملى .. يخفف حملى .

رنا الى الفضاء .. قال لنفسه بصوت واهن :

— ها هو احمد يحمل جوال الدقيق بذراع واحدة ، وحين رآنى احمل الجوال على ظهرى وقد ثقل على وهدنى قال لى : اتركه لى يا ابى (وضحك فى مرارة) .

قلت له : انت يا ولد تحسب نفسك رجلا .. ضحك وقال لى :

— لا .. انا لست رجلا معك وفى وجودك . ابتعد انت واتركه لى .

اطلت راس الحصان فجاة من شرفة احلامه ، فلم تخرجه من ساحة الذكريات ، ولم تصرفه عما فيها ولكنها دخلت معه اليها .

قال لنفسه :

— كان يحبك يا مبروك .. اقصد كان سيحبك وكنت ستحبه .. لانه مثلى طيب القلب ولا يريد من الدنيا غير اللقمة الشريفة .

تابع حديثه وكأنه تذكر شيئا .

— تعرف ترقص يا مبروك ؟ كنت اريدك ان ترقص له فى فرحة .

ونبعت فجاة من عينيه دموع ساخنة ، لم تمسح ذكرياته ولم تمنع استرسالها ، لكنها افرغت من قلبه شعور الالم ، فبدا كالكرة مجوفا هشا ولكنه نابض .

انسابت الدموع على خديه المعفرين بذرات الدقيق ، فشقت لهـا خطين بلون جاده الاسمر من بين لون الدقيق الابيض الذى كسا وجهه .. كل مافيه من الملامح حتى انفه واذنيه ورموش عينيه .

انسابت دموعه حين تذكر ان زوجته ولدت له ولدا فى العـام الماضى . وسهر معهـــا الليل كله يغنى بعلو حسه ويلاعب المولود ، وزينب تضحك لانها اثبتت انها امراة ولا كل النساء ، وزوجة ولا كل الزوجات ، وأم تستطيع ان تنجب وسوف تنجب الكثير ..

كآبة مفاجئة اظلمت وجهه :

— هل تذكر يا مبروك ثانى يوم ، حين قابلنا الولد ابن جارنا ، صاحب الخبر المشئوم عند دكان الحاج متولى ، وقال لى ابنك مات

يا عم سالم .. ساعتها وقع الجوال من فوق ظهرى .. فاكر يا مبروك او نسيت ؟ .. هز الحصان راسه : نعم نعم ..

وقع الجوال واقفا خلف ظهرى واستندت عليه ثم سالته : وامه يابنى قال : بخير لكنها قطعت نفسها من العياط .

طفرت الدمعة من عينى .. ونظرت الى الارض كانى اريد ان اخفى فى ترابها المى وحظى الطين .. الولد قال لى : لا تحزن يا عم سالم ربنا يعوضك عنه .. الحقيقة .. كلمة الولد رفعت عن صدرى حملا ثقيلا ..

فتحت عينى وكأن كلمته كانت التصريح لى بالحياة .. احسست ان الولد لو لم يقلها فربما اطبقت يدى على رقبته ، فلا اتركها الا بعد ان يطب ساكت ..

اقترب من نهاية الذكريات .. والذكريات طريق طويل .. مهما كانت مرة يحب الانسان ان يرجع لها .. يسمعها ويحسها ويحتضنها ويحافظ عليها .. يرددها بينه وبين نفسه ويتاكد دائما من وجودها .. لم تغفلها الذاكرة ولم يبتلعها النسيان .

انها صندوق المجوهرات الثمينة .

ويتذكر سالم :

ـ فاكر يا مبروك قبل أن يقابلنا الولد بلحظات .. ماذا حدث لك وقعت على ركبتك وانت تصعد الكوبرى فاكر ام نسيت ؟ وانقلب الدقيق .. قلبى انخطف منى ساعتها ، لكنى قلت : الحمد لله اصبح عندى احمد .. هو ذراعى وظهرى .. نسيت ربنا مرة وفاتت ، والعوض من عند الله هو الاول والآخر .

حين طفا قليلا فوق سطح الذكريات واصبح قادرا بوعيه على العيش فى الحاضر الذى كان غائبا عنه .. لمح بعينه كوبرى المدينة فافاق من رحلات افكاره واغلق على الفور باب ذكرياته العريض .

قفز من العربة ليكون الي جوار حصانه . يشجعه ويشد من ازره وهو فى المرحلة الصعبة من الطريق . ولم ينس ان يضع ذيل

جلبابه بين اسنانه ، حتى لا تعوق حركته واخذ يردد بعض الكلمات منغمة ، يبعث بها العزم ويحييه فى قلب مبروك .

هيلا .. هيلا .. اجمد يا مبروك .

ويضرب الحصان حوافره فى الارض ، يحاول ان يدفع الطريق الى الخلف ، يطويه ويتقدم ـ هيلا . على الله .. يابو الفوارس .

مضى سالم يمسح العرق المتصبب على رقبة مبروك .. ومع هذا الحنان الذى تتدفق به يد سالم ، تشتد عزيمة الحصان ، فالحنان يدركه الحجر ، وتقوى ضربات الحصان فى الارض ، يزرعها همة وحماسا .. وصاحبه الى جانبه ، ينقل بصره بين ما مضى من الكوبرى وما بقى منه .

يا قوة الله .. الشدة من عندك ..

ويشد مبروك حيله ، ويتقدم الى اعلى ارتفاع فى الكوبرى ، مفتوح العينين فى اصرار ، مرفوع الراس فى ثقة .. لايعبأ بحمله وكانه غير موجود .. لقمة العيش صعبة . تحتاج الى الصبر والبذل والتصميم .

ما ان اتمت العربة عبور الكوبرى الطويل المرهق ، الذى يحمل اسوا الذكريات لسالم وحصانه وللآخرين ، حتى التمعت عينا سالم بالفرح وبرقت ابتسامة على شفتيه ، ورقص قلبه بين جنبيه .. اخذ يجرى فى خفة الى جوار حصانه ويقترب من راسه ، يكاد يتعلق فيه .. اخذ يواليه وهو يغنى بعيدان البرسيم .. يتناولها الحصان فى زهو المنتصر ، كانه يرى نفسه جديرا بها وبخير منها .

سالم يهلل فى فرح :

ـ انت لم تقع يا مبروك كما وقعت فى المرة الماضية .. الله لا يرجعها .. زينب ستلد احمد وسيعيش احمد باذن الله .. سيعيش يا مبروك .

زادت هزة راس الحصان .. وفهم منها سالم ان الولد سيعيش .. وتنهد سالم فى انشراح ، صعد الى العربة يكمل باقى الطريق ويفكر على مهل ، فيما ينوى ان يفعله لابنه الجديد .

سوف يعيش ابنى يا مبروك .. هل تعرف لماذا ؟ .. لقــد احضرت له طبيبا .. احسن طبيب .. سوف يأخذ منى ما يشاء .. المهم ابنى .

ــ لاذ بالصمت قليلا وكأنه يحاول تصحيح مسار فكره .

ــ لن اسميه احمد فأحمد قد مات .. سأسميه باسمك .. لكى يبارك الله فيه .

ولن اعلمــه صنعتى .. يبدو أن احمــد حين علم انى سأعلمه صنعتى . ذهب ..

تركها وتركنى .. سوف اعلمه فى المدارس الكبيرة فى مصر كى يصبح ضابطا او طبيبا .

واشترى له سيارة وليس عربة كارو ، سوف يكون شخصا عظيما سيكون اهم منك عندى ، يجب أن تقبل هذا من الآن .. وسوف ترتاح من العمل بعض الوقت كى يركبك ، وتتنزه به فى الحقول والمزارع .. واياك .. اياك ان تهمله او تؤذيه او تتركه يسقط من فوقك .. اعتنى به يا مبروك .. سيحبك وتحبه .

وصلا الى المدينة .. انزل سالم الجوالات ، وركب الحصان وطرقع سوطه .

اسرع الحصان كما لم يسرع من قبل ، كأنه يعلم بما يخالج صاحبه من القلق والامل .

وصل سالم الى البيت .. قفز من العربة واندفع الى الداخل مشرعا اذنيه ، خافق القلب ، يكبر باسم الله ويستعين به .

تلقته حماته راقصة الملامح ، باسمة الشفاة قائلة :

ــ افرح يا سالم .. مبروك .

اضاءت قلبه انوار البهجة فهلل : ابنى حبيبى مبروك ابنى .

فنبهته حماته فرحة : قل ابنتى .. جاءت لك بنت كالقمر المنير .

تسمر سالم فى مكانة وجحظت عيناه .. بنت .

ردت عليه حماته : طالعة لأمها ..

ــ بنت !!

قالها كأنه لا يفهم معناها .. ما معنى كلمة بنت .. ماذا تكون .. ما هى ؟

غلبته الدهشـة كأنها انجبت له راديو مثلا او كتاب ..

اخذ يستعيد افكاره وكأنه يلوم نفسه ، لماذا لم يفكر فى ذلك ؟ لقد نسى هذا الموضوع تماما .. لقد تصور ان الدنيا ليس فيها غير الذكور .. الامل خدعه واستدرجه الى مكان منعزل .

اخذ ينظر الى حماته نظرة الطالب الذى جاء ليمتحن فى كتاب ففوجىء بأنه سيمتحن فى كتاب مختلف تماما .. ماذا سيفعل فى ورقة الاجابة ؟

اخذ يقلب راسه يمنة ويسرة وهو لا يكاد يفهم شيئا ، ويجاهد فى تخليص نفسه من الموقف الذى غرق فيه كالابله .. ويحــاول ان يتكيف مع الموقف الجديد : الحمد لله على كل شىء .

نظرت اليه حماته .. اتهمته عيناها بالتقصير فى الفرح :

ــ ما بك يا رجل .. اذهب واجلس الى جوار زوجتك .. ست الستات .

تقدم الى الحجرة التى تنام فيهــا زوجته ، متهدل الاكتاف ، منكس الراس كأنه ذاهب الى السجن .. وفى الغرفة راى زوجته فشد عوده .. وابتسم حين لاح له وجههــا رغم الوهن والارهاق وبقايا الالم .

نظرت اليه زوجته نظرة المنتصر بعد جهد ، نظرة من يتوقع ان يهنئه كل الناس .

« تمت »

الفهرس

رقـــم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٤٢٩٦ / ٨٣

الترقيم الدولى : ٧ – ٤٨ . – ٩٧٧ ISBN

٣٠ قرشاً

هذه الروايـة

هذه هي المجموعة القصصية الثالثة للاديب القاص فؤاد قنديل، لكنها تختلف تمام الاختلاف في الاسلوب والرؤيا والموضوع عن سابقتيها « عقدة النساء » و « كلام الليل » ·

سوف يطالع القارىء العربي في هذه المجموعة أفكاره ، ويرى فيها وجهه ، ويسمع من خلال تدفق أمواجها خفقات قلبه وأنين أوجاعه، بل وثورة الصمت في أعماقه ·

سنضع ايدينا على مظاهر متباينة من الصراع الانساني في سبيل حياة أفضل، ولكن الحريات تتضارب والرغبات تتشابك لتعلو حرية على حرية ، ولتتغلب رغبة على رغبة ·

رحلة متميزة ومبهرة ، يأخذنا فيها الكاتب من خلال قصصه لندهش ، وندهش طويلا لاننا نرى فيها وجوها لنا كانت خفية تكشف المهجور من حياتنا والمستور من شخصيتنا ·

هذه القصص هي خلاصة مركزة لحياتنا ، وهي في الوقت ذاته مرآة جديدة نرى من خلالها مواقفنا ·

أنها تؤكد ابرز سمات قصص فؤاد قنديل الاصالة والصدق ، بساطة الاسلوب وسهولته ·